مصر الفرعونية

تأليف

أسامة حسن



مقدمة

فى هذا الكتاب سوف نتناول كل ما يمت للفرعونية بصلة ، وكل ما يميزها عن غيرها من الحضارات القديمة . . سوف نستعرض الديانات المصرية القديمة ، والعادات والتقاليد ، والمعتقدات التى بنيت عليها تلك الحضارة التى مازالت إلى الآن توجد حولنا تشهد على عظماء شيدوها، وحق لهم الخلود بما صنعوا من أجلها ،و تتجلى تلك العظمة فى بناء الأهرامات والمعابد والمقابر حيث النقوش التى أزالت الستار عن الكثير مما لا نعرف عن هؤلاء العظماء .

لقد اهتم الفراعنة بجميع نواحى الحياة ولم يتركوا علماً لم يقفوا ببابه طلباً له فلقد تعلموا الطب وبرعوا فيه كما تعلموا الزراعة وظهرت قدرتهم واضحة فوق الربوع الخضراء ولم ينصرفوا عن الفن ، ولكن كانوا متقدمين تقدماً مذهلاً فى الفن من رقص وغناء، إلى نحت ونقش وبناء . . ما أروعهم هؤلاء الأجداد وأروع ما صنعوا لنا لنخلد ذكراهم ونعظم قدرهم فى نفوسنا ولكى نقف فى تَبَاهٍ أمام العالم بأسره لنقول : ها هو ماضينا المشرف وها هو مستقبلنا الوضاء لأن عزيزى القارئ من لم يكن له ماضٍ يعتز به لا يوجد له مستقبل يصبو إليه.

ولننظر جميعاً إلى الشمس فما أجمل أشعتها التى تبعث لنا دفئاً يسرى بأجسامنا وحرارة لا تجد حلاوتها فى أى بلد آخر، فمنذ فجر التاريخ وهذا القرص العظيم يخص بنوره ودفئه مصرنا الحبيبة ويمنحها حبه ويغدق عليها صباحه الجديد الجميل فى مزيج من الألفة والود وكأنها وقعت على عهد الأخلاء معه إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

أما القمر فكم أضاء ليل الدجى بنوره الفضى الذى ينساب على نيلها فيجعله نهراً من اللجين يرى المرء فيه صورته تحتضن قطرات مياهه العذبة مصدر حياة كل كائن حى. وعليه قامت حضارتنا وفوقه سرنا نتنزه فتحملنا مياهه فى حنان وكأنها الأم تحتضن

طفلها حتى لا يبكى وتدخل السرور إلى قلبه فما أجملك يا حابى يا نهر النيل وما أجمل قمر يلقى أشعته فى حنان يضمنا جميعاً تحت القبة الزرقاء وفوقه الفيافى الخضراء.

أما الورى فهم أناس لم يأتِ مثلهم ولن يأتى لأن الله خص مصر بهم وحدها دون غيرها من البلاد. الطيبة شيمتهم والحب عُرْفهم والاتحاد طبعهم والنُّبْل والشرف سيماهم والبسالة من أهم صفاتهم، وهذا لأنهم استدفأوا الشمس وأضاء ليلهم القمر و ارتوى ظمؤهم من النيل الخالد واستظلوا بهامات النخيل التى علت الأرض فى إباء وشمم.

من أجل ما فات ومن أجل شعور يراودنى بحبى لمصريتى لا يوصف أكتب هذا الكتاب، على أمل أن يلقى منها ـ مليكتى مصر ـ استحساناً ودعاء لها بدوام الخير والأمان.

المؤلف

الباب الأول

تاريخ مصر
القديم والمتوسط

الفصل الأول

التاريخ القديم

امتـد هذا التاريخ فى الفترة مـن ٥٥١٠ إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد أى أكثـر من واحد وخمسين قرناً.

حيث ضم ثلاثين أسرة تحت قبة هذه الحقبة التـاريخية الكبيرة، وسوف نوضح فيما يلى كل ما توصلت إليه من مـعلومات عن كل أسرة من الأسر التى تنتمى لهـذه الحقبة التاريخية.

□ الأسرة الأولى : (من ٥٥١٠ إلى ٥٢٤٧ قبل الميلاد)

هذه الأسرة المصرية الأولى التى استطاع التاريخ أن يصل إليها. أسسها فرعون مصر « مينا »، الذى بـنى مدينة « منفيس » الكـائنة على رأس الدلتا، وحول نهـر النيل عن مجراه وقد كانت مدينة تانيس عاصمة ملـكه وهى بجوار مدينة جرجا حيث توجد قبور الملوك الأولين.

وقد وجدوا فى مصر حجراً نقش عليه أسماء تسعة ملوك مصريين حكموا قبل قيام مينا والدولة الأولى وهذا الحجر الموجود عليه تلك الأسماء يوجد الآن فى متحف مدينة « بالرمو » عـاصمـة جزيرة صـقلية، ويروى عن « مـينا » أنه ابن ملك عظيم يدعى « بارمور» حكم مصر العليا فقط.

وكانت عـاصمة ملكه « تانـيس » أو « إيبدوس » ، كمـا أسماها اليـونان وعرفت باسم « طيبة » وتدعى اليوم « العرابة المدفونة ».

وكـان فى مصـر السفلـى ملك آخر يحكم في نيـس (صا الحـجر) بالقـرب من الزقازيق واشتعلت نـار الحرب بين هذين الملكين ودامت عشر سنوات، قتل فيـها الكثير

من شعب الأسرتين واشتد الكره والبغض والشحناء بين الأمتين لأن مصر حتى ذلك الحين لم تكن دولة واحدة أو أمة متحدة.

وأراد « مينا » إنهاء تلك الحرب الضروس التى كادت أن تقضى على الشعب كله فى الدولتين فذهب إلى والده الملك قائلاً ـ أتركنى أحكم أسبوعاً واحداً وأتعهد إليك بإنهاء هذه الحرب الشنعاء.

فأجابه والده إلى طلبه ونادى به ملكاً . . فأرسل « مينا » رسولاً إلى ملك « صا الحجر » يقول له : لقد طالت الحرب عشر سنوات ولم تنته ولقد نادى بى والدى ملكاً وأرغب الصلح معك. إن لك ابنة واحدة وليس لأبى ولد سواى. ودعنى أتزوج ابنتك فتكون ملكة معى، ونجمع العرشين فى عرش واحد، وأبنى عاصمة جديدة تقع فى منتصف المسافة بين عاصمة ملكك وعاصمة ملك والدى.

وبالفعل تزوج « مينا » من ابنة ملك « صا الحجر » وجمع مصر لأول مرة فى عرش واحد ومملكة واحدة وبنى مدينة « منفيس » (من ـ نفر) وبنى حولها سوراً أبيض ودعاها المدينة البيضاء، أو المدينة الجميلة.

وبنيت « سقارة » لتكون مدفناً وقد اشتق اسمها من اسم الإله « سقر » إله القبور وقيامة الأموات. وبها السرابيوم العجيب المدفونة فيه العجول المحنطة، ويُعد من العجائب . . وذكر أن « مينا » كان أول ملك فى الأرض وأول من عبد العجل فى مصر.

وبعد « مينا » جاء « تيتا » الفرعون فألف كتاباً فى علم الحيوان والتشريح، ثم حكم « سامتى » وهو الذى وجدوا فى قبره أوراقاً من البردى عليها فصول من كتاب الموتى وقد ذكر فى هذا المؤرخ « مانيتون » ، المؤرخ المصرى أن الملك « أتونيس » مارس الطب ووضع مؤلفات فى التشريح، ولكن يد الدهر لعبت بها فلم يبقَ لها من أثر .

□ الأسرة الثانية :(من ٥٢٤٧ إلى ٤٩٤٥ قبل الميلاد)

وفى الأسرة الثانية حكم فرعون « فيخوس » وأقام العجل « أبيس » إلهاً فى «منفيس» ، وكان يشترط أن يكون عجل « أبيس » مولوداً من عجلة نزل عليها البرق، وأن يكون شعره أبيض فى جبهته أما باقى صدره فيكون أسود الشعر. أما بقعة الجبهة فتكون مثلثة الزاويا. والحقيقة أنهم لم يعبدوا العجل لذاته لأنه كان رمزاً إلى الإله الخالق العظيم، غير المنظور.

وجاء بعده « بناثر » فرعون فحكم إحدى عشرة سنة، وكثرت الخيرات والبركات فى مصر حتى أنهم كانوا يقولون : إن النيل يسكب عسلاً لا ماء فى مصر .

□ الأسرة الثالثة :ـ (من ٤٩٤٥ إلى ٤٧٣١ قبل الميلاد)

وفيها نجد الملك « زوسر » أول ملوك الأسرة الثالثة يهجر طيبة وينقل ملكه إلى المدينة البيضاء « منف » واشتهر ببناء هرمه المدرج الذي بناه لكى يكون قبرا له وقد دفن فيه وكان له وزيره المشهور « امهوتب » (الآتى بسلام) الذى برع فى الطب والدين والسحر وفن العمارة حتى أصبح فيما بعد إله الطب عند قدماء المصريين وهو أول من استعمل الحجر فى البناء وأول من شيد العمارات الحجرية الضخمة لأن والده كان معمارياً ومهندساً بارعاً. فهو الذى بنى الهرم المدرج فى سقاره وكان فيلسوفاً ومؤلفاً وإليه ينسب النشيد الجنائزى الذى كان ينشد على القيثارة وهو « اترك الهموم واذكر الأفراح حتى يأتى اليوم الذى تسافر فيه إلى أرض الصمت ».

ولكن لما جاء اليونانيون إلى مصر حولوا هذه الجملة إلى « دعنا نأكل و نشرب، لأننا غداً سنموت » وجاء بعده الفرعون « سنفرو » الذي بنى هرمى « دهشور وميدوم » وفى أيامه وصلت إلى مصر أربعون مركباً مشحونة بخشب الأرز من لبنان وبوفاة «سنفرو» انتقل الملك إلى الأسرة الرابعة .

□ الأسرة الرابعة :ـ (من ٤٧٣١ إلى ٤٤٥٤ قبل الميلاد)

هؤلاء هم بناة الأهرامات فراعنة الأسرة الرابعة . أسس هذه الأسرة الفرعون «خوفو» ويقال أنه ابن الملك « سنفرو » من زوجته « حتب حرس ». ويقال : إن «خوفو» كان أميراً توصل إلى خلع الملك « سنفرو » من على عرشه والاستيلاء عليه ، وقد وجدوا قبره داخل الهرم الكبير الذى بناه لنفسه والذين بنوا أهرام الجيزة ثلاثة فراعنة :

(١) « خوفو كيوبس » وقد بنى الهرم الأكبر.

(٢) « خفرع » ومعناه ضوء الشمس وقد بنى الهرم الثانى.

(٣) « منقرع » وقد بنى الهرم الثالث.

بنوها لتكون قبوراً لهم ولأولادهم من بعدهم، وكان الملك « خوفو » أعظم ملوك الأرض شاد الهرم الأكبر مدفناً كما هو شائع ومركزاً لاغراض فلكية كما يقول بعض العلماء.

وكان بناء الهرم فى أيام الفيضان الذى كان يستمر ثلاثة أشهر تنقل الأحجار فى خلالها من محاجر جبل المقطم (طرة) مدفوعة على مياه الفيضان.

الهرم الأكبر

وتبلغ أحجار الهرم الأكبر حجماً ٨٥ مليون قدم مكعب وعددها حوالى مليونين وثلاثمائة ألف حجر كبير.

وقد هدم عمرو بن العاص خمسة أمتار من بنائه فى سبيل التفتيش عن ثروة الفراعنة.

ويبلغ ارتفاع كل حائط فى هرم « خوفو » ٥٦٨ قدماً وطوله ٧٤٦ قدماً وهو مبنى على ١٣ فداناً ويوجد فيه نحو مليونى حجر وثلاثمائة ، يزن كل حجر منها ٢,٥ طن وقد بنى منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

أبو الهول

ولا نعرف تماماً من بنى « أبو الهول » الكائن بجوار الأهرامات لكن اتفق المؤرخون على أنه بنى للإله « هرماخس ». كما تدل على ذلك اللوحة التى كتبها تحتمس الرابع حينما أزيلت الرمال عنها. بناءً على ظهور هذا الإله له فى الحلم وهو نائم على الرمال بجانبه.

□ الأسرة الخامسة :ـ (من ٤٤٥٤ إلى ٤٢٠٦ قبل الميلاد)

وجاءت الأسرة الخامسة متخذة لها « منف » عاصمة لملكها وحكم خلالها تسعة فراعنة أهمهم الملك « أوسركاف » ولما توفى جاء مكانه « سحورا » وهو أول من شيد أسطولاً بحرياً لمصر.

ثم جاء الملك « إيزيسي » وبعده الملك « أونيس » فرعون ووزيره « ميرا » اللذان بنيا أهرام أبى صير وشيدا بها الهيكل لعبادة الشمس وبنيا أهرام سقارة ولهما قبور فيها.

وقد كان الملك « آسى » آخر فراعنة الأسرة الخامسة وكان وزيره « فتاح حتب » فيلسوفاً، وله نصائح وأمثال تعادل أفضل مايكتب فى هذه الأيام ومنها قوله « إذا حزت الثروة بعد الفاقة . فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها فإنك أنت أمين على نعم الله والأمين يؤدى الأمانات وأن جميع ما وصل إليك سينتقل عنك إلى غيرك ولا يبقى لك منه إلا الذكر أو خيراً أو شراً »

وفى هذه الأسرة وعهدها افتتحت مصر السودان لأول مرة، وبانتهاء الأسرة الخامسة انتهت قائمة الملوك من نسل الملك « مينا ».

أما الأسرة السادسة فكان أساسها الملك « تيتا ».

□الأسرة السادسة :ـ (من ٤٢٠٦ إلى ٤٠٠٣ قبل الميلاد)

إن الملك « تيتا » مؤسس الأسرة السادسة مجهول التاريخ لانعلم عنه شيئاً سوى أن اسمه وجد منقوشاً فى رأس قائمة ملوك السادسة من أهم فراعنة الأسرة السادسة الملكة

« فيتوركيس »، الجميلة الجذابة التى انتقمت لأخيها الفرعون ممن قتله فقد بنت قبراً رحباً واسعاً تحت الأرض ثم دعت كبار رجال المملكة الذين تآمروا عليه وقتلوه إلى افتتاحه وأعدت لهم وليمة عظيمة ثم أطلقت عليهم مياه النيل فأغرقتهم جميعاً.

ثم جاء بعدها « بيبى » فرعون مصر وابنه « مريرع » الفرعون الذى فتح ممراً للشلال لعبور السفن التجارية وهو أول فرعون زار الشلال وبحث فى سيناء عن معدن الذهب وحارب النوبة والعرب.

وقام بحملة عسكرية لإخضاع أهالى فلسطين الذين ثاروا على مصر وتحصنوا فى جبل الكرمل التى تقوم عليه مدينة حيفا.

وقد بنى ملوك الأسرة السادسة معابد فى « دندره » و«تاييس » وكانت عاصمتهم جزيرة أسوان المعروفة عندهم بـ « الفنتين » ، و« أسوان » معناها الحجر أو الصخر.

وفى عهد « أبالى » الفرعون تغير اسم الدار البيضاء إلى « ممفى »، ثم جاء اليونان فأسموها « ممفيس ».

□ **الأسرة السابعة :ـ (عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد)**

لم تلبث الأسرة السابعة فى الحكم سوى مدة قصيرة بسبب حالة الخراب الذى عم مصر، ويقول المؤرخ مانيتو : إن بعض الأمراء المصريين أسسوا هذه الأسرة. ولم يعثر المنقبون على آثار تذكر لهذه الأسرة أو لأحد من ملوكها، وأول ملك ارتقى عرش مصر من هؤلاء كان « أختويس » الفرعون كما يقول المؤرخ وبنى هو ومن جاء بعده أهرامات أبى صير.

□ **الأسرة الثامنة :ـ (من عام ٣٥٠٠ إلى عام ٣٣٥٠ قبل الميلاد)**

ليس لدينا معلومات عن هذه الأسرة سوى أنه وجد فى قائمة لوحة العرابة أسماء سبعة عشر فرعوناً حكموا مصر فى هذه الأسرة وزاد البلاء فى مصر على أيام الأسرة الثامنة، والمرجح أن الأجانب غزوا مصر على أيام هذه الدولة وحكموها .

□ الأسرة التاسعة :ـ (من ٣٣٥٠ إلى ٣٢٠٠ قبل الميلاد)

وعلى أيام هذه الأسرة قويت سلطة الفيوم، وهم من أصل ليبى فاغتصبوا عرش مصر من ملوك الأسرة الثامنة. وجعلوا عاصمتهم مدينة « أهناس » المعروفة باسم « هيراكيوبوليس » وهى بلدة واقعة جنوب الفيوم ومركز عبادة الإله « حورس ».

□ الأسرة العاشرة : ـ (من ٣٢٠٠ إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد)

وهى الأسرة التى بنت مدينة « سوت » المعروفة الآن بأسيوط وفى أيام هذه الأسرة نشبت الحرب الأهلية بين ملوك الوجه القبلى وملوك الوجه البحرى فانتصر فراعنة الوجه القبلى ولم نعثر على آثار لملوك هذه الأسرة سوى ما وجد فى مقابر أسيوط لأحد أمرائها حيث يقول « إذا جاء الليل مدحنى كل من نام فى الطريق لأنه أصبح آمناً، كالذى يقطن داره، ذلك لأن خوف الأشرار من جنودى كان خير من يحميه فى وحدته ».

وبنهاية الأسرة العاشرة انتهى التاريخ القديم لمصر الفرعونية حيث بدأ بـ « مينا » وانتهى بفراعنة الوجه القبلى وظل هذا التاريخ حوالى ٢٤١٠ عام من ٥٥١٠ إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد.



الفصل الثانى

التاريخ المتوسط

□ الأسرة الحادية عشرة :ـ (من ٣١٠٠ إلى ٣٠٥٠ قبل الميلاد)

لقد قامت الآن فى مصر أسرة عظيمة ذات نفوذ كبير جعلت عاصمتها مدينة « أرمنت » لمدة وجيزة.

إن سلسلة جبال وادى النيل تتسع وتبتعد فتترك بينهما سهلاً منبسطاً خصباً نشأت وسطه قرية صغيرة سميت « طيبة » أصبحت فيما بعد أعظم مدينة أثرية فى العالم .

وكان أمير « أرمنت » يدعى « أنتف » فثار ملوك « اهناس » وشق عليهم عصا الطاعة واغتصب الملك منهم، وأسس الأسرة الحادية عشرة.

وشعر أن « أرمنت » لا تصلح عاصمة للملك وكره أن يعود إلى « ممفيس » العاصمة القديمة فنقل « أنتف » عرش مصر من الشمال إلى الجنوب ومن « منف » إلى « طيبة »، ومن هذا التاريخ بدأت طيبة تلعب دوراً هاماً فى تاريخ الدولة المصرية وجاء « منتوحب » الفرعون بعد « انتف » « فرعون وبنى على صخور طيبة معبداً بديعاً. ويعتبر هذا الملك المؤسس الأكبر لسيادة طيبة على مصر ثم غزا النوبة واستولى عليها.

واهتم ملوك هذه الأسرة بعمارة مدينة طيبة واتخذوها عاصمة لهم وجعلوا الإله « رع » سيد جميع الآلهة.

ويعود الفضل فى اكتشاف قسم كبير من كتاب الموتى إلى الملكة « خنام نفرت » زوجة « مانتى هوتب » أحد ملوك الأسرة الحادية عشر.

□ **الأسرة الثانية عشر : ـ (من ٣٠٥٠ إلى ٢٨٤٠ قبل الميلاد)**

لقد توسع ملوك هذه الأسـرة فحكموا النوبة حـتى الشلال وشيـدوا أهرام دهشور وبنوا قبور « بنى حسن » و « البرشه ».

مؤسس هذه الأسـرة هو « امنمحعت الأول » وأهم ملوكـها « سرتسن » الفـرعون الذى أقام أمام هيكل الشمس مسلتين من الحجر الصوان ومنها المسلة الموجودة فى المطرية الآن، وسار هذا الجيش بملكه إلى أسوان ووصل إلى وادى حلفا حيث شيد هيكلاً نقش اسمه وأسماء جدوده على جدرانه.

أما الملك « امنمحعت الثالث » المعروف عند اليـونانيين باسم « لامارس » فقد حفر البحيرة المشهورة المعروفة ببحيرة موريس بالفيوم.

وبنى قصراً بالقرب من هذه البحيرة يحـتوى على ٣٠٠٠ غرفة، ويعد من عجائب الفن المعمارى. وقد قال عنه المؤرخ « استرابو » الذى زاره ووصـفه وصفاً دقيقاً بأن كل حجرة من الحجرات عبارة عن حـجر واحد وكذلك أرض كل حجرة منه . وبنى خزاناً للمياه بالفيوم، وكان هذا الخزان كبيراً كالبحـر فدعوه الفيوم، والفيوم كلمة مصرية قديمة معناها البحر.

وهو أول من قسم الأراضى بمقتضى نظام الرى، و وضع حدوداً للمدن والأطيان.

وقاس منسوب ارتفاع النيل وسجل ذلك على صخور « بسمنه » بالقرب من الشلال الثانى. ويقول بعض المؤرخين : إنه هو الذى بنى أبا الهول.

وقد استولى فـراعنة هذه الدولة على محاجر مدينة « خـفو » بالقرب من « إدفو » وكان فيها مدارس وجامعات لتعليم العلوم والفنون والنقش.

وقد انتـقل الملك كله إلى « طيبـة » وأصبحت مـصر لأول مرة فى الـتاريخ مملكة واحدة متحدة وكان ذلك التاريخ يعد عصرها الذهبى المشهور.

وقد اهتم فراعنة مصر بالرى والأطيان، وحولوا بحيرة قارون إلى خزان عظيم لرى

الفيوم. وحاربوا النوبيين، فقهرهم « اوسرتسن » الفرعون وبنى خطاً دفاعياً بين مصر والنوبة.

وقد وجدت في مقبرة « خنوم حوتب » فى بنى حسن صور لسبعة وثلاثين رجلاً من الشام، جاءوا إلى مصر .

ويؤخذ من نقوشهم الموجودة على جدران مقابر بنى حسن، أنهم كانوا يلبسون الثياب الصوفية، التى ينسجونها بأنفسهم بما فيها من الزخرفة والوشى، ويلبسون النعال ويحملون الأسلحة المعدنية وفى أيديهم عصا ثمينة.

وقد استفادت مصر كثيراً من علوم ومعارف أهل سوريا ولبنان رغم أنها كانت صاحبة السيادة عليهما.

وقد ذكر « هيرودوتس » أن « سيزوستريس » عبر قارة آسيا كلها إلى أوروبا وسار إلى جنوبى روسيا على شواطئ البحر الأسود وانتصر على سكان تلك البلاد ونهب ثروتها، وعاد بها إلى مصر مصطحباً خيرة رجالها من علماء وفنيين ونقاشين.

□ الأسرة الثالثة عشرة :ـ (من ٢٨٤٠ إلى ٢٤٠٠ قبل الميلاد)

وأيام هذه الأسرة انقسمت مصر وسادت الفوضى وساءت حالة البلاد، وذلك لأن الفراعنة أتوا من طيبة لحكمها ولكن بانقسامهم على أنفسهم حدث ما حدث.

□ الأسرة الرابعة عشرة :ـ (من ٢٤٠٠ إلى ٢٢٠٠ قبل الميلاد)

وفى أيام هذه الأسرة انقسمت مصر إلى دويلات صغيرة ونقلت عاصمتها إلى الوجه البحرى فى مدينة سخا « إكسويس » وأخذت مصر فى الانحطاط والهبوط وهذا مما سهل دخول الهكسوس إلى مصر حيث أسسوا بلدة لهم بالوجه البحرى تدعى « أواريس » وجعلوها مقراً لهم ولحكمهم. ولكن لما انقرضت الأسرة الثالثة عشرة وجاءت الأسرة الرابعة عشرة وكان ملوكها مصريين ومقر حكمهم « بإكسويس » أشبه بولاة الهكسوس، وظل نفوذهم يزيد عاما بعد عام حتى خضع الجميع لهم ودفعوا لهم الجزية.

□ الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة :ـ (من ٢٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قبل الميلاد)

ولما انقضت الأسـرة الرابعة عشرة قـبض الهكسوس على زمام الملك ولذلك اعـتبر المؤرخون أن الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى تاريخ مصر عصر لهؤلاء الرعاة الملوك وكانوا أول أمرهم ظالمين كثيرى الاعتداء على مصر والمصريين، ولكنهم عدلوا عن ذلك فيمـا بعد وتطبعوا بكثيـر من طباع المصريين وشيـدوا كثيراً من المعابد والمبـانى كما اتخذوا لهم معبوداً جمع بين معبودهم الأصلى وآلهة المصريين.

وأسموه « سوتح » ويعد قريب الشبه من « ست » الإله القديم للفراعنة حيث صور فى نظرهم بالبعل السورى. كما أنهم انتحلوا أسماء فـرعونية لأنفسهم ونسبوا أيضاً لهم تماثيل حكام الوجه البحـرى السابقين على النمط المصرى الفرعونى، ولكن مـثلما كانت للهكسـوس مسـاوئ تذكر كلمـا ألقى باسمـهم على مسـامعنا فـيجب علينا أن نـذكر محاسنهم أيضاً فهم أول من أدخلوا الخيل بالـقطر المصرى ودربوا المصريين عليها لدخول الحروب بها، ولهم الفـضل فى دخول المصريين الحروب العظيـمة والفوز فيهـا لأتباعهم ماتعلموه على يد الهكسوس من فـنون القتال والإرشادات النفسية والتعـاليم القيمة التى مازلنا نتوارثـها حتى وقتنا هذا كمـا تعلموا على أيديهم أيضاً صناعـة المعادن والأسلحة والنسيج وصناعة الأوانى المختلفة.

□ الأسرة السابعة عشرة :- (من ١٩٨٥ إلى ١٥٧٥ قبل الميلاد)

تعد هذه الأسرة هـى الأسرة العربية فى مصـر حيث انها ترك حكمهـا للهكسوس وبالمناسبـة اسم الهكسوس هذا اسم فـرعونى « هيك سوس » ويعـنى « الملوك الرعاة » نسبة لأن العرب كانوا رعاة أغنام .

وقد اخـتلف المؤرخون على موطنهم الأصلى فـ « مـانيتو » قـال: إن هؤلاء الرعاة جاءوا من فينيقيا « لبنان » وقال آخر : إنهم بدو « الشاسو » وذكر مؤرخون آخرون أنهم حيثيون أو كنعانيون.

وكان زحـفهم إلى مصر تحت راية زعـيمهم « الوليـد بن دومج » الذى عرف عند

اليونان باسم « سلاتيس » كما أنهم اتخذوا « منفيس » عاصمة لهم وجعلوا أيضاً في « أفاريس » « هوارس » قيادة جيوشهم في القسم الشرقي من الدلتا وبنى « سلاتيس » فيها مساكن تتسع لمائتين وأربعين ألف مقاتل آوى بها جيوشه وأوقفها هناك كخط دفاع أول لمصر ضد هجمات الشعوب الآسيوية في آشور وبابل .

☐ الأسرة الثامنة عشرة : ـ (من ١٥٧٥ إلى ١٣٥٠ قبل الميلاد)

في الواقع كانت الأسرة الثامنة عشرة على صلة وعلاقة بالأسرة السابعة عشرة فكان أول شئ أرادوه ملوكها استئصال الهكسوس فقام الملك « أحمس » مؤسس هذه الأسرة بغزوهم في عاصمتهم « أواريس » وطردهم منها وظل وراءهم وغزاهم ثانية في « شاورهين » أو « شرحان » وهي تقع في الجنوب الغربي من فلسطين وفتحها بعد حصار دام ثلاث سنوات، ويعتبر هذا أول حصار طويل من نوعه في التاريخ وهذا وإن دل يدل على شدة مقاومة الهكسوس وطول صبر « أحمس » وبعد ذلك ظل يتتبعهم ويطردهم حتى وصل إلى فينيقيا وكانت معروفة وقتئذ باسم « زاهي » و « سوريا » ولما عاد إلى القطر المصري بعد طرده للهكسوس وجه نفسه لاستعادة ما فقد من جنوب القطر « النوبة ».

ويقال إن « أحمس » قد استخدم ثيران الهكسوس في أعمال عمارته في السنة الثانية والعشرين من حكمه.

وظل « أحمس » يحارب في بلاد النوبة حتى انتصر على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا انتزاع السلطة منه ولم يبقَ منهم إلا المخلصون معه مثل أمير « الكاب » ثم جاء بعد «أحمس» الملك « أمنحتب الأول » وله غزوات بالشام والنوبة وبعده جاء الملك « تحتمس الأول » (طوطميس الأول) وله انتصارات كثيرة في الشام والنوبة وأرض الجزيرة (مابين النهرين) وفي هذا الوقت مر على مصر نحو ثلاثين عاماً لم يحدث بها اضطراب أو فتن داخلية، وبالتالي كان للحكومة مال كثير يؤهلها للدخول في ذلك الطور الحربي العظيم الذي تهيأت لها فيه تلك الفتوح الكبرى.

بدأ تحتمس عهد فتوحاته بإخضاع بلاد الكوش (النوبة) وإدخالها فى طاعته، وهذه البلاد كانت تمتد من الشلال الرابع (الجنادل الرابعة) جنوباً إلى مدينة « الكاب » شمالاً. وبعد ذلك اتجه إلى بلاد الشام. ومنها إلى نهر الفرات وعاد إلى مصر يحمل الأسرى والغنائم الكثيرة.

لم يكن « طوطميس الأول » محارباً فقط بل كان له باع فى المعمار، حيث شيد معبد الكرنك وهو عبارة عن بناء هائل ناحية قرية الكرنك شيدت أجزاؤه على فترات وكان المعبد الأصلى فى أول الأمر صغيراً وأسس بمدينة طيبة فى عصورها الأولى. ولكن عند وفاة تحتمس دفن بوادى مقابر الملوك (بطيبة) الذى يعرف الآن « ببيبان الملوك » فكان هو الأول لعدد عظيم من الفراعنة الذين دفنوا بهذه الأرض.

وحدث فى أيامه الأخيرة منازعات على من يتولى العرش من بعده وانتهت بجلوس ابنه « تحتمس الثانى » على العرش ولكن لم يكن له أى شئ يذكر خلال المدة الوجيزة التى جلسها على العرش، وبعد ذلك ذهب العرش لأخته الملكة « حتشبسوت » (حاتاسو) بالاشتراك مع « تحتمس الثالث » وكانت « حتشبسوت » على قدر كبير من القوة والذكاء.

وذلك سهل عليها أن تسلب من « تحتمس الثالث » الأمر كله كما ساعدها على ذلك صغر سنه. فكان من السهل أن يخضع لها كما خضع لها الجميع. ولكن ظهر عليها أثناء حكمها غرور عظيم وتيه لا حد له كما تزيّت بزى الرجال ورفضت أن ترتدى ملابس النساء. وكرست كل مجهودها فى اتجاه الأعمال السلمية فأكثرت من تشييد المبانى ونقشها وتدوين أخبارها ودعاويها العريضة عليها.

وكان من أهم مشيداتها معبد « الدير البحرى » الفاخر ناحية (طيبة) على الجانب الغربى للنيل وكما زادت جزء على معبد « الكرنك » وأقامت مسلتين عند مدخله. ومما يذكر أنها أرسلت بعثة بحرية إلى بلاد (بنت) « الصومال » لإحضار أشجار منها لغرسها بمعبدها المذكور وعادت البعثة ومعها ما أرادت وزيادة عليها نفائس وخير كثير من هذه البلاد.

ولكن بعد وفاتها أصبحت الفرصة سانحة أمام « تحتمس الثالث » أن يمتلك الحكم بعدما ظل كامناً نحو اثنين وعشرين عاماً. وبدأ يظهر مواهبه وإقدامه ومهاراته الحربية التى جعلته فى عداد كبار الفاتحين فى مصر الفرعونية.

كان ببلاد الشام فى تلك المدة عدة ولايات صغيرة غربى سوريا وكانت خاضعة لنفوذ المصريين ولكن لما مضى على ملوكها زمن طويل ولم يروا فيه الجيوش المصرية فى بلادهم تكبح جماحهم وتؤدبهم على ما كان يقع منهم من التمرد شقوا عصا الطاعة على المصريين بعد وفاة « حتشبسوت » وكان الملك « قادش » زعيم هذه الحركة فخرج « تحتمس » من مصر فى أواخر السنة الثانية والعشرين من تتويجه قائداً لجيش عرمرم نزل به بعد نحو عشرين يوماً على السفح الجنوبى لجبال « الكارمل ».

وقد كانت جيوش الأعداء المتحدة قد سارت نحو الجنوب يقودها الملك « قادش» حتى عسكرت في « مجدو » وهى مدينة منيعة فى السفح الشمالى من جبال «الكارمل».

فسار « تحتمس » نحو العدو وأقسم أن يكون هو في طليعة الجيش فحمل به على الأعداء ظاهر المدينة ،فولوا مذعورين إليها تاركين معظم النفائس التي بمعسكر الملك «قادش» غنيمة باردة للمصريين ثم حاصر « تحتمس » مدينة « مجدو » المذكورة فسلمت إليه بعد بضعة أسابيع .

أما الغنائم التى أخذت من المدينة فكانت أفخر وأنفس من التى أخذت خارجها ثم اتجه نحو الشمال ففتح ثلاث مدن في السفح الجنوبى لجبل لبنان وبنى حصناً فى تلك الجهة ليأمن به شر الملك « قادش» إذا زحف ثانية نحو الجنوب .

ثم بدأ بتنظيم هذا الإقليم الذى فتحه فعزل ملوك الأسرات القديمة مخافة أن يعاودوا الخروج عليه ونصَّب مكانهم آخرين .

ثم رأى «تحتمس» أن يشيد قلعة بتلك الجهة لصد أى تقدم جنوبى أو أى محاولة من الملك قادش ولتأمين الطريق بين سلسلتى جبال لبنان من أعداء المصريين، وقد سمى هذه

القلعـة «تحتمس جـامع الوحشـيين » وقد استـعمل كلمـة « وحشـيين » التى أطلقتـها حتشبسوت سابقاً على الهكسوس.

وقد سمح « تحتمس » للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية فى مواعيدها .

كانت سلطة « تحتمس » كما نرى متوغلـة فى آسيا حتى مدينة دمشق وكان يفرض الجزية والتشدد نحو البلاد غير المصرية بقدر ما تحمله لمصر من كره وبغض ،لذا عاد إلى مصـر ومعه مـئات الأرطال من الذهب والفـضة وأوان بديعة الصـنع وأثاث ثمين وأقام ثلاثة أفراح مدة كل واحد منهم خمسة أيـام احتفالاً بنصره الآسيوى .ووافق وقت هذه الأعياد ميعاد العيد الأول والثـانى والخامس « لآمون » على حسب التقويم السنوى وكان احتفاله بآخـر هذه الأعياد فى معبد «تحتـمس الثالث » الذى كان قد أنجزه حديثـاً وقتئذ بسفح طيبة الغربى .

كان « تحـتمس» شديد الإخلاص للإله « آمـون » حيث أوقف له خيرات ونفـقات كثيرة للتمكن من إقامة أعياده كل عام كـما عمل على زيادة الثروات للمعبد حتى يظهر دائماً فى أبهى صورة وفيه أفخر الأثاث والأمتعة .

وفي السنة الخامسة والعشرين من حكمه ذهب مرة أخرى إلى بلاد آسيا وجعل همه تنظيم أملاكه فـيها واعتـبرت فيما بعـد النصف الجنوبى لامبراطوريته المقـبلة، أما الجزء الشمالى فكان وقتها لا يزال عاصياً .ثم عـاد إلى (طيبة) فوجد مبانيه بالكرنك بلغت من الفخامة درجة كـبيرة فأمر بنقش جدار إحدى القاعات بنبـاتات وحيوانات آسيا التى سباها وجاء بها ليقدمها إلى معبد آمون وبحيرته المقدسة التى شيد حولها إفريزاً جميلاً .

وفى السنة التاسعة والعشرين عزم تحتـمس على القيام بغزوة جديدة فأبحر بأسطوله الضخم إلى المدن الشـمالية على شاطىء فيـنيقيا الغنى لأول مرة فى حـياته، وفى ذلك الوقت أيقنت المدن الداخليـة للبلاد أن نجاح هـذه الضربة الموجهـة إليهم معـناه هلاكهم ودمارهم فبادر أهلها بإرسال القوات والمدد لمحاربـة المصـريين .ولـكن سـرعـان مـا هزم

« تحتمس » المدن الساحلية واستولى على أول أسطول لهذه المدن ثم زحف بعد ذلك إلى الجنوب نحو مدينة أرواد المنيعة « أرمادا» فحاصرها مدة يسيرة اضطر فى أثنائها لأن يجتث الأشجار المحيطة بها من أصولها فاستسلمت له بعد مدة يسيرة ثم استولى على خيراتها الفينيقية الجزيلة .

وتقدم حكام فينيقيا مظهرين الخضوع والولاء «لتحتمس » وفى أيديهم الجزية . وهكذا استولى على جزء كبير من شاطىء فينيقيا الشمالى اتخذه فيما بعد قاعدة حربية لغزو البلاد المجاورة وعاد مرة أخرى إلى مصر عن طريق البحر .

وعاد لفينيقيا ولكن هذه المرة فى السنة الثلاثين من حكمه ليسحق عدوه اللدود الملك « قادش»، واتبع مع مملكته ما فعل سابقاً فى « مجدو» و« آرمادا» وهو الحصار وقطع الأشجار ولكن هذه المرة كان الحصار مدة طويلة جداً مما أدى إلى اعتقاد حكام «أرمادا» أنه هزم فى معركته مع «قادش» فامتنعوا عن دفع الجزية للمصريين ،فانتظر حتى تمت هزيمة قادش وعاد توا لأرواد« آرمادا» ينزل بهم شديد العقاب وعاد منتصراً مرة أخرى إلى طيبة ليعد العدة ويجهز لمحاربة بلاد النهرين واستغرق هذا عاماً كاملاً.

وفى عام الثلاثة والثلاثين احتل بلاد أرض النهرين ولم يكتف بل عرج شمالاً حتى وصل إلى مدينة « كارشميش» واحتلها هى الأخرى بعد حرب فى هذه المنطقة استمرت حوالى عشر سنوات فى آسيا استطاع « تحتمس » أخيراً أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه وهو أن تصل حدوده إلى نهر الفرات .

وعبر« تحتمس » نهر الفرات ووضع تذكاراً على أرض بلاد « متاني»وهو عبارة عن حجر أثرى نقش عليه حدود مملكته .ولكنه وجد مدينة تهدد ملكه فى الفرات فاستولى عليها دون أى مقاومة من أهلها وجلس بها طلباً لرياضة صيد الفيلة، وفى غضون ذلك كان أمراء بلاد النهرين يفدون إلى سرادقه يقدمون إليه الجزية إقراراً بخضوعهم له.

وسرى الخوف من بطشه إلى أهل الممالك المجاورة لأرض الجزيرة جنوباً وشمالاً فبعث ملك بابل على بعد داره بالتحف النفائس تزلفاً لفرعون وحذا حذوه فى ذلك

أهل« خيتا» الذين كانت تمتد أملاكهم إلى أواسط آسيا الصغرى (وربما يكونون الحيثيين المذكورين فى التوراة) وكما كان حال الجيش البرى من سطوة وانتصار كان أيضاً حال أساطيله البحرية حيث أصبح ملك « قبرص » أشبه بوالٍ له.

وكان للأسطول المصرى مهابة عظيمة فكان له عظيم الأثر على قوة نفوذ مصر التى تمتد من شرقى البحر المتوسط إلى ما وراء بحر « إيجه » ،وهذا يعتبر أقدم مثال يؤيد مزايا القوة البحرية. وكان « تحتمس » ينوى بعد كل ما حققه من انتصار فى آسيا أن يقضى بقية حياته مستريحاً فى مصر ولكن بعد ما عاد من فتوحاته الآسيوية وجَّه هِمَّته نحو النوبة .ثم تراءى له أن يوسع حدوده وممتلكاته الجنوبية إلى أبعد مما هى عليه كما يستدل من الآثار التى أشارت إلى اهتمامه بتلك الجهات ،وقد وجدت له معابد بالغة فى إقليم الشلال الثالث وذلك بجهة « كلبشة » و« عمادا» ووادى « حلفا» و« سمته »و« قمه » وقد رمم فيها معبداً « لسيزستريس الثالث » .

عاش « تحتمس الثالث» اثنتى عشرة سنة بعد آخر حملة آسيوية ولما شعر بالضعف والشيخوخة أشرك معه فى الحكم ابنه « امنحتب الثانى » الذى رزق به من الملكة «حتشبسوت» ،وقبل أن يتم « تحتمس الثالث» أربعة وخمسين عاماً على اعتلائه للعرش بخمسة أسابيع توفى فأسدل الستار أمامه على هذه الدنيا التى قام فيها بأعمال باهرة اهتزت لها الأرض اهتزازاً .وقد دفنه ابنه بوادى الملوك ولا تزال مومياؤه باقية حتى الآن

ووجد أنشودة لكهنة آمون وضعوها تمجيداً ومدحاً « لتحتمس الثالث »، وقد احتوت هذه الأنشودة على عدة أبيات شعرية بديعة .وفيما يلي جزء منها :

« هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب أمراء زاهى .لقد أوقعتهم تحت أقدامك ودفعتهم أمامك حتى اخترقت أقطارهم وأريتهم جمال حضرتك وأطلعتهم على جلالتك فصاروا ينظرون إلى سعادتك كملك مصور من نور فأصبحت تشرق عليهم كصورتي البهية وتبدو عليهم كذاتى العلية، هأنذا قد جئت أبحت لك أن تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض فى أسرك الرتنو(أى بلاد الآسيويين) .لقد رأيتهم جلالتك متهيئة للحرب قابضة أسلحتها ومقاتلة على عجلاتها .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الشرق وتجوس خلالها إلى مدائن الأرض المقدسة وقد أريتهم جلالتك ككوكب سهيل الذى ينشر النور مع الإيضاح وينشر الندى فى الصباح .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب بلاد الغرب فكل (بلاد الخفيتو) و(قبرص) فى ربقة الفزع منك حيث أريتهم جلالتك كثور هو من نوع البقر فى الفتوة والجراءة بمكان ، يزينه قرنان فلا يقاومه معارض أيّا كان .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان سائر الخطط الأرضية فبلاد متانى تنتفض فزعاً من هيبتك حيث أريتهم جلالتك كالتمساح وهو الملك القهار فى مملكة البحار منيع الجوار لا ينجو منه ديار .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان الجزائر فكان أهل البحار فى فزع من صباح قومك بنداء الحرب حيث أريتهم جلالتك كمنتقم جبار يعلو ظهر فريسته .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الليبيين ولتكن جزائر (الأوتنتو) فى قبضتك مأسورة حيث أريتهم جلالتك كأسد يفزع كل من ينظر إليه ويرقد على رمم موتاهم وفى خلال أوديتهم بحيث لا يتيسر لأحد أن يقدم عليه .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب سكان أقاصى البلاد وأن تقبض على دائرة مياه (الأقيانوس) حيث أريتهم جلالتك كباشق يحوم فى الجو بطيره ويختطف كل ما أعجبه بمخلبه .

هأنذا قد جئت وأبحت لك أن تضرب الأقوام القاطنين على حدودك وليكن القوم المسمون بسكان الأراضى الرملية في أسرك أحياء حيث أريتهم جلالتك كثعلب بلاد الجنوب الذي تختفى فى سيره فيقطع البلاد ويخترق الأراضى البعاد .

وكما ترى عزيزى القارىء أن محتويات تلك القصيدة التي قيلت على لسان« آمون» ليست خيالية كلية ولا هى من مبتكرات الكهنة لأن صفات « تحتمس الثالث »

وشخصيته برزت في تاريخ مصر القديم بدرجة منقطعة النظير فى ملوك مصر قاطبة ماعدا « إخناتون » « فتحتمس الثالث» فاق فى أعماله كل من سبقه وجاء بعده . فلقد أظهر « تحتمس » مقدرة عظيمة فى إدارة البلاد وحفظها . فلم تغفل عينه لحظة عن أى جزء من أجزاء مملكته .

ومن آثاره مسلتان عظيمتان أقامهما (بعين شمس) ثم نقلتهما بعده « كليوباتره » للإسكندرية ولذلك اشتهرتا بمسلتا « كليوباترة » وإحداهما الآن بلندن والثانية فى نيويورك. وهكذا انتهى أجمل عصور مصر برحيل « تحتمس الثالث» وبدأ عصر «أمنحتب الثانى » ابنه بحرب المتمردين في بلاد آسيا حيث إنهم عندما وصل لهم خبر موت «تحتمس الثالث » شقوا عصا الطاعة على مصر رغبة منهم فى التخلص من الجزية.

لكن « أمنحتب الثانى » واجه ذلك الخطر ببسالة ونخوة ورثهما عن والده فاستقر رأيه على الزحف على آسيا وإخضاع أعدائه متحدين وكسر جيوشهم الجرارة أما جنوبى فلسطين فلم يجرؤ على الثورة ولكن فى العام الثانى من حكمه زحف إلى شمالى فلسطين وحارب أعداءه بجهة « شمش إدوم » وكانوا وقتئذ تحت قيادة أمراء لبنان ولكن لاتباع الملك سنة والده الملك « تحتمس الثالث » فى هلاك أعدائه، لذا كان يعود من معاركه منتصراً .

ومن المعروف أن هذا الملك كان عظيماً كوالده مع قلة آثاره التى تركها واشتهر بعظيم السلطة وشدة البأس وورد عنه أنه كان قوي البنية والافتخار بنفسه لا يضارعه إنسان فى استعمال قوسه الحربى وقد عثر على هذا القوس فى قبره فوجد منقوشاً عليه هذا النص « قاتل الأعداء . . قاهر قوش وناهب بلادهم . . سور مصر العظيم الحامى جنوده » .

وفى العام الثالث عشر من حكمه احتفل احتفالاً عظيماً لتنصيبه مسلة فى جزيرة الفيل للذكرى .

وتوفى هذا الملك بعدما ظل يحكم مصر لمدة ستة وعشرين عاماً ودفن أيضاً كما دفن والده وأسلافه فى وادى الملوك بطيبة ولاتزال جثته موجودة حتى الآن،وقد سقط اللصوص على جثته وقطعوا لفائفها للاستيلاء على حليها الملكى .

ولما توفى هذا الملك توفى بعده ابنه « تحتمس الرابع » وقد حدث كما جاء فى أسطورة قديمة أن « تحتمس الرابع » خرج يوماً للصيد بجوار أهرام الجيزة مدفن ملوك الدولة أو الأسرة الرابعة فتعب وجلس بجوار أبى الهول مستظلاً به فنام ورأى فيما يرى النائم أن الإله ظهر له وطلب إليه نقل الرمال المحيطة به والمنهالة عليه ووعده أن يجعله ملكاً على مصر إن فعل هذا لأبى الهول الذى يعد أحد رموز الشمس .

وهذه الأسطورة منقوشة على حجر بين قدمى أبي الهول ، ولم يمض ردح من الزمن حتى أصبح « تحتمس الرابع » فرعوناً على مصر .ولا يزال هذا الحجر فى مكانه وفي مبدأ حكم هذا الملك شبت فى آسيا ثورة عارمة فذهب لهم هناك وبمجرد ظهوره لهم عاد كل إلى طبيعته فعاقبهم على ذلك بفرض جزية كبيرة أخذها من ملك تلك المستعمرات اللعين وعندما عاد عن طريق لبنان أمر حكام تلك الجهات أن يجمعوا كمية كبيرة من خشب الأرز ثم شحنها إلى طيبة ليبنى منها سفينة مقدسة للمعبود « آمون » ،ولما وصل إلى طيبة استخدم عدداً من الأسرى الذين أتى بهم من فلسطين للعمل داخل معبده بطيبة الذى شيده بجوار معابد أسلافه .

ولكن لكى يقوى « تحتمس » شوكته فى الشمال رأى أن من مصلحته أن يحالف له صديقاً هناك فأرسل إلى ملك « متانى» ملتمساً منه إرسال كريمته ليقترن بها فتردد الأمير يسيراً كالمعتاد فى مثل هذه الأحوال ثم رضى آخر الأمر وأرسلها إلى مصر وكان اسمها « موتا أمويا» وقد صارت فيما بعد أم « أمنحتب الثالث» الذى خلف «تحتمس الرابع» فى الملك.

وبهذه الوسيلة تمكن « تحتمس » من عقد معاهدة ثابتة مع « متانى » وأراد «تحتمس» بعد ذلك العقد أن يضيف له شيئاً جديداً فأطلق على نفسه لقب « فاتح سوريا ».

وفى السنة الثامنة لحكمه جاء له خبر يعلن أن أهل النوبة شقوا عصا الطاعة فعزم الهمة على الذهاب إليهم وبالفعل وصل إليهم وهزمهم هزيمة نكراء واستولى على كميات عظيمة من الغنائم الحربية وأرسل الأسرى الذين ضرب عليهم العبودية إلى معبده ليخدموا فيه ولكن شاء القدر أن لا يمهل « تحتمس » وقتاً كافياً على الأرض ليحسن من شأن طيبة كما فعل سابقوه، وكل ماهو باقٍ يدل على حب عظيم أكنه « تحتمس الرابع » لجده « تحتمس الثالث » تجلى فى استكماله لمسلة جده التى تركها فى مدخل الكرنك الجنوبى نقش عليها دعوات وصلوات ودوّن عليها أيضاً أفعال جده الخيرية، وقد بلغ طول هذه المسلة إلى مائة وخمسة أقدام وهى أكبر مسلة باقية للآن وتوجد الآن فى إيطاليا، ولا تزال منصوبة أمام اللاتيران بروما .

وتوفى « تحتمس » بعد ذلك بمدة يسيرة جداً وقت الاحتفال ببعض أعياده ودفن بوادى مقابر الملوك (بطيبة) مع أجداده السابقين .

وجاء بعده الدور على « أمنحتب الثالث » لتولى الحكم الذى يعد آخر كبار فراعنة الامبراطورية المصرية ،مما عرف عنه أنه فى زمانه كانت المملكة المصرية قد وصلت إلى أعظم درجات الرقى والحضارة ولكن سرعان ما بدأت تتدهور ببطء .

وكان هذا نتيجة لانشغال الملك « أمنحتب الثالث » عن أمور المملكة لولعه الشديد بالنساء حتى انتهى الأمر بتزوجه من امرأة غريبة تدعى «تى» مجهولة الأصل وقد تسلطت هذه الملكة وقد استمرت سلطتها قوية طوال حكم « أمنحتب الثالث » وقد أظهر هذا الملك مقدرة عظيمة فى إدارة الشئون وذلك أدى إلى عدم شن ثورات عقب توليه فى المستعمرات الامبراطورية .ولكن فى آخر السنة الرابعة لحكمه حصلت مشاغبات بجنوبى النوبة فذهب إليها فى أوائل شهر أكتوبر حتى يتمكن من عبور الشلال بأسطوله فى وقت ارتفاع منسوب الماء وبالفعل وصل إليهم الملك وهزمهم وظل يزحف جنوباً حتى وصل إلى تل « هوا» الذى يقع على حدود الصومال.

ومن المعروف أن هذه الحرب كانت الحرب الأخيرة فى الجزء الجنوبى« السودان»

ولكن كل ما حدث بعد ذلك معارك صغيرة لا تمثل أهمية . وترى أيضاً أن نفوذه كانت قوية فى آسيا وله سلطة لا تقاوم ففى قصر بابل كانت سلطته على سوريا وفلسطين «كنعان » معترفاً بها ولما أراد بعض أمراء آسيا القيام بحركة عدائية مشتركة على مصر كتبوا إلى ملك بابل المدعو « كوريجالزو» طالبين انضمامه إليهم فرفض ذلك بتاتاً قائلاً : إنه إنما يتحالف مع فرعون مصر ثم هددهم فعلاً بالقوة إذا هم ثاروا على « أمنحتب الثالث ».

عزيزى القارىء لا أحد ينكر مدى التقدم والرقى الذى ظهرت فيه الامبراطورية في عهد هذا الفرعون « أمنحتب الثالث » . فقد كانت الأقصر فى وقته معتبرة إحدى ضواحى (طيبة)، وكان فيها معبد صغير (لآمون) شيده ملوك الأسرة الثانية عشرة . فلما أتى « أمنحتب الثالث » هدمه وأقام محله معبداً جديداً تحيط به عدة حجرات أمامها قاعة كبيرة كالتى شيدها «تحتمس الأول » فى الكرنك.

بعد ذلك شيد مهندسو « أمنحتب الثالث » أمام هذا البناء إيواناً بديعاً يحوى أروقة ذات عمد يعتبر الآن أجمل ما خلفه لنا التاريخ المصرى القديم من العمائر ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم فشيدوا إيواناً آخر أمام الإيوان السابق وأكبر منه ويظن أيضاً أنهم صمموا وقتئذ على إقامة إيوان ثالث أمام هذا الأخير ،وبدأ المهندسون بتشييد الإيوان الثانى بأن نصبوا أولاً صفاً من العمد الشامخة على جانبى محور الإيوان فكانت أعلى من أى بناء شيده المصريون سابقاً ،وليلاحظ أن أكبر حجم هذه العمد كان متمشياً مع حسن منظرها فرؤوسها البديعة صنعت على مثال زهر البردى اليانع الجميل.

بعد ذلك شيد المهندسون عمداً أخر أقصر طولاً على جانبى عمد المحور فنجم عن ذلك ارتفاع سقف محور الإيوان على سقف جانبيه .ثم فتحت منافذ فى الجدار القائم بين سقف الصحن العالى وسقف الجانبين فنشأ عن ذلك أساس عمارة المحاكم الرومانية والكنائس الكبيرة فى عهدنا هذا.

ومن دواعى الأسف أن « أمنحتب الثالث» توفى قبل أن يتم بناء الإيوان الكبير فلما

تولى « إخناتون » الحكم لم يهتم بها لأنه يبغض « آمون » .بعد ذلك أتى فراعنة آخرون شيدوا جداراً حول عمد الصحن من أحجار عمد الجانبين التى لم تكن نصبت وقتئذ ولا يزال هذا البناء العظيم باقياً حتى عهدنا هذا .

وهكذا فإن « أمنحتب الثالث» بات يقيم بطيبة العمارات الضخمة العديمة المثال فشيد صرحاً شامخاً أمام معبد الكرنك حاوياً أنواع التحف ونصب على جانبيه شواهد حجرية مطعمة باللازورد وبكميات كبيرة من الذهب والفضة ،كما أنشأ شارعاً فسيحاً يصل هذا البناء مبتدئاً من النهر وعلى جانبيه مسلتان عظيمتان، وأقام المهندس أمام ذلك تمثالاً للملك مصنوعاً من صخرة واحدة من الحجر الرملى مقطوع من محاجر قرب القاهرة وقد أحضر هذا التمثال إلى طيبة جيش من الأهالى بطريق النيل ويعتبر هذا أكبر تمثال صنع حتى هذا العهد وشيد أيضاً معبداً «لموت» معبودة طيبة فى مكان المعبد الذى أسسه أسلافه من قبل وذلك جنوب الكرنك .وحفر بجواره بحيرة مقدسة وزرع حديقة غناء فيما بين الكرنك ومعبد الأقصر فكان طولها حوالى ميل ونصف وأنشأ بين هذين المعبدين طريقاً فسيحاً أقام على جانبيه تماثيل حجرية لكباش يحمل كل منها بين رجليه الأماميتين تمثال جلالته .

ولاتزال هذه العمارات باقية تشهد بعزها السابق ومجدها القديم ومنها يتضح أن مقام طيبة عظم وقتئذ فصارت جديرة بأن تكون عاصمة امبراطورية كبيرة وأول مدينة أثرية فى العهد القديم .أما شاطئها الغربى الذى يحوى مقابر الفراعنة السالفين فلم تعتره تغيرات كالتى للكرنك ولمعبد الأقصر ،وبديهى أن علو شأن الامبراطورية المصرية وارتفاع منزلتها بين العالم لم يقتصر على مظاهر الحياة الخارجية كالعادات والأخلاق والثروة وإتقان الحرف ووسائل الجمال ،بل شمل أيضاً رقى الفكر وحدّة الذهن ،ومعلوم أن هذا الرقى والتقدم الفكرى كان متجهاً غالباً منذ أقدم العصور إلى الأمور الدينية لا إلى الأمور الدنيوية، وقد شاهدنا أعراض التقدم بين كهنة مصر قبل غزو مملكتهم للبلاد الآسيوية فقد فسروا معبوداتهم وقتئذٍ بأساليب خرافية وفلسفية واقتنعوا بها .

لذا كان من الصعب عليهم أن يؤمنوا بما جاء « إخناتون» « أمنحتب الرابع » حيث

إنه نادى بإله واحد وأسماه « آتون » بدلاً من كل المعبودات التى كانت كثيرة فى وقته فوقف ضده الكثيرون وأيده البعض ولكن سرعان ما أقبل الكثير على اعتناق المذهب الجديد وفهم معانيه ولكن ظل البعض لا يؤمنون به وخاصة كهنة « آمون » .

ولأن اتجاهه في حياته كان اتجاهاً دينياً بحتاً وبعيداً كل البعد عن الاتجاه السياسى والحروب وتهاون فى صد الغزاة الذين أغاروا على الشام قبيل توليه الملك وظل نفوذه فيها يتقلص شيئاً فشيئاً حتى كاد يتلاشى بالمرة بعد وفاته .

ومن أجل « آتون » الذى رمز له برمز الشمس نقل عاصمة البلاد من «طيبة » موطن عبادة « آمون » وبنى له حاضرة جديدة سماها « أخيتاتون » تقرباً لمعبوده « آتون » وتقع الآن فى « تل العمارنة » .

أما عن سر تغييره لاسمه من « أمنحتب » إلى « إخناتون» فهو أنه وجد أن أمنحتب مندمج فيه اسم « آمون » فغيَّره إلى « إخناتون» أى «روح آتون» .

عمل « إخناتون » على محو النقوش من جميع الآثار القديمة التي عليها اسم «آمون» حتى التى نقش عليها اسم والده .

ولانشغال « إخناتون » فى الأمور الدينية كان من السهل على الحيثيين أن يستولوا على مدن سوريا الشمالية وأغار غيرهم من الأمم السامية على أطرافها الجنوبية كل ذلك بالطبع كان مبغضاً فى نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها ،فحنق عليه كهنة « آمون» لما لحقهم من الأذى وسخط عليه جنود والده لما رأوا من انحطاط الدولة على يديه ونفرت منه العامة لأنهم لا يرضون بغير دينهم بديلاً ولم يجد بجواره غير زوجته « نفرتيتي » الشامية الأصل ـ كانت تدعى قبل دخولها مصر « تادوجيبا» أما اسمها الفرعونى فقد أطلقته عليها الملكة «تى» والدة «إخناتون» ويعنى(الجميلة القادمة) وذلك لإعجابها الشديد بجمالها ـ كانت دائماً تتزعم الحركة الدينية الجديدة مع أمه الملكة «تى» وأصدقاء « إخناتون » المخلصين.

أقام« إخناتون» فى مـدينة « أفق آتون» - التى أسسهـا عاصمـة جديدة على النيل - كثـيراً من المعامل لصناعة الزجـاج الساذج والملون ولصناعة الميناء والفـسيفسـاء و إتقان الأصباغ والألوان وزخرفة التماثيل وتمويهها بالذهب .

وقد اتفق المؤرخون أن الحفر والنـقش والرسم بلغ فى عهد « إخناتون » فى مدينـة « تل العمارنه » ما لم يبلغه فى طيبة أو فى أى مكان آخر فى « مصر» .

ويعد أصدق مثال على ذلك هو تمثال الجميلة « نفرتيتي » الموجود حالياً فى المتحف الوطنى فى برلين .لذا صـار هذا التمثـال شاهد عـدل على دقة الصنع وجـمال النقش والرسم فى أيام إخناتون .

أما الجانب الحربى فى حكم « إخناتون » فكان متـدهوراً جداً كما سبق وذكرنا لك عزيزى القارىء لأن « إخناتون» نفسه كان يكره سفك الدماء البشرية ويعتقد أنها لا تتفق مع المبادىء الإنسانية ومع عبادة الإله الواحـد وعانى هذا الملك الفيلسوف الشاعر المفكر مرارة الألم حين رأى دينه الحقيقى ودعوته الوطنية الصادقة تتفكك وتنحل أمام العدو فى الداخل والخارج .

وكـانت فى ذلك الوقت جيـوش الحـيثـيين قد وصلـت إلى حدود مـصر فـأرسل «إخناتون» قائد جيوشه الأعلى « حورمحب» لمطاردتهم وهو لا يدرى أن « حورمحب » هذا كان أيضاً صنيعة لكهنة « آمون» وجاسوسهم الأكبر .

وترك « حـورمحب » جنود « مـصر » تتـقهقـر دون أن تحارب فـوقع الاضطراب وعمّت الفوضى فى صفـوف الجيش المصرى والشعب المصرى طبقاً لخطة وضـعها كهنة «آمون» .

وكافـأ كـهنة آمـــون جـاسوسهم « حـورمحـــب» بأن نصبوه بعد ذلك فـرعوناً على «مصر».

وأراد « إخناتون» أن ينقذ مصر من الخراب والدمار بعـد أن ثارت عليه المستعمرات

المصـرية ووصلت طلائع جيـوشـها إلى مـصر نفـسهـا فطلب أن يتـفق كهنة « آمـون» معه، وثارت عند ذلك « نفرتيتي » على « إخناتون» زوجها وفضلت أن يزول الملك على أن يترك زوجها عبادة « آتون» ويعود لعبادة ذلك الصنم «آمون» .

إن « نفرتيتى » كانت صغيرة حينما جاءت إلى « مصر » فعلمتها الملكة « تى » ـ أم «إخناتون» ـ عبادة الإله الواحد وشرحت لها أسرار هذه الديانة الحقيقية .

وتعمقت « نفرتيـتي » فى معرفة الإله الواحد وتعبـدت له شأن زوجها « إخناتون» وأمه «تى» وتضرعت «نفرتيتي » إلى « إخـناتون» أن يحارب فى سبيل الإله الواحد وأن لا يستـسلم لكهنة « آمون» لكن « إخناتـون» كان يحب السلم ويكره الحرب فـلم يسمع لتضرعها .

ولما لم يصغ زوجها إلى نصائحها تركت قصره وعرشه وذهبت إلى قصر لها على الضفة الأخرى من النيل حيث عاشت بقية حـياتها وحيدة فريدة تعبد الإله الواحد الذى آمنت به وأخلصت له .

وكانت الثورة فى الخارج وثورة كهنة « آمون» فى الداخل تزيد من هموم «إخناتون» وأحزانه وخاف « إخناتون» على ملكه من الضياع ولم يكن له ولد ذكر لأن « نفرتيتي » أنجبت له ستـة بنات .زوّج الكبرى منهن وأسماها « ميريت آتون» أى مـحبوبة « آتون» لصديقه الحميم « ساكرع » .ثم أشركه معه فى الملك ليكون ولى عهده بعد موته .

وزوّج ابنته الأخرى « أنحس انفرت » إلى صديقه توت عنخ آتون .

ومات« إخنـاتون» بعد أن حكم ست سنوات من عـمره فى طيـبة وكانـت أمه فى خلالهـا القائمة على العـرش وحكم عشر سنوات فـى تل العمارنة وإن التـاريخ ليقف مندهشاً من عبقـرية « إخناتون» وجرأته فى نشر آرائه الفلسفية ومـذهبه الدينى فى عصر قديم مثل العصر الذى عاش فيه نحو ثلاثين عاماً .

وتوفى بعده صديقه وصهـره « ساكرع » فانتقل الملك إلى « توت عنخ آتون » الذى ترك تل العمارنة وعاد إلى طيبة .

ووضع نفسه ملك يمين كهنة « آمون» وغيّر اسمه من « توت عنخ آتون» إلى « توت عنخ آمون » وعادت السلطة وعاد النفوذ إلى كـهنة آمون وأصبح الفرعون الجديد « توت عنخ آمون » آلة فى أيديهم يديرونها كيف يشاءون.

ومات « توت عنخ آمون » وعمره ثمانية عشر عاماً وقد أكتشفت مقبرته أخيراً وفيها أبدع وأجمل الحلى والنقوش .ولكن كثيراً مما وجد فيها كان من صنع « إخناتـون » لأن « توت عنخ آمون » لم يعش طويلاً لينشئ شيئاً أو ليبنى قبراً .

وبعد مـوت « توت عنخ آمون» تولى الكاهن الأكـبر « أبى » المُلك فحـاول تعزيز عبادة «آتون» ففشل .

وبعد موته ادعى كهنة « آمون » أن الإله ظهر لهم وأمرهم أن ينصبوا « حورمحب » (قائد جيوش إخناتون وجاسوسهم القديم) فرعوناً لمصر .

فنادوا به ملكاً بعد أن زوجوه من الدم الفرعونى الفتاة « مونتزمعت» أخت إخناتون ليجعلوا حقه فى الملك شرعياً .

وهجم كهنة « آمـون » على عاصمة إخناتون فى تل العـمارنة .فعبـثوا فى المدافن والمعابد ومـحوا اسم « إخناتون» من جميع الـرسوم والنقوش وقضـوا على كل أثر لهذا الملك الصالح .

ومات« حـورمحب » دون أن يرزق أولاداً يرثونه فـانتقل الملك إلى رمـسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة .

□ الإسرة التاسعة عشرة : (من ١٣٥٠ إلى ١٢٠٥ قبل الميلاد)

اعـتلى « رمسـيس الأول » العـرش وهو فى سن الشـيخـوخـة وتوفى بعـد سـتـة أشهر، فانتقل الملك إلى ابنه « ساتى » .

قام « ساتى الأول » بمجرد توليه الحكم بشن غارة على عرب الخبيرى الذين استولوا على فلسطين أيام « إخناتون » وأكرههم على دفع الجزية لمصر .

ويقال إنه حفـر قناة من النيل إلى البحر الأحمر وهو الذى بنى أعظم مـا شيدته يد الإنسان فى تاريخه الطويل وهو قاعة الأعمدة فى معبد الكرنك فى الأقصر .

إن قاعة الكرنك العظمى تعتبر أعظم أعمال البشر لأنها أعظم قاعة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة حتى الآن .

إن الكرنك بناء قديم لا نعرف من ابتدأ فى تأسيسه . لكن أقدم اسم وجد منقوشاً على جدرانه هو اسم الملك أوسـرتسن أحد ملوك الأسرة الثانيـة عشرة ـ وربما هو الذى بنى هيكل الكرنك أو هيكل « أبت » كما كان يدعوه قدماء المصريين .

ظل « سـاتى الأول » يواصل من فلسطين إلى كنـعان (غـربى سـوريا وفلسطين) وعبر نهر الأردن إلى جهة « حـوران» ثم قفل راجعاً إلى لبنان فى ذات الطريق التى سار عليها قبله « تحتمس الثالث » وأخـضع مدينتى (صور) و (صيداء) وجميع شواطىء فينيقيا جنوبى نهر (الليطانى).ثـم تابع سيره إلى أولازا على النهرالكبير وأرسل وراء ملك قبرص فجـاء إليه حاملاً هدايا كثيرة على عادة ملوك تلك الجـزيرة ثم أقفل راجعاً إلى غربى سوريا والجليل واستولى على مملكة الأموريين .

وقد كانت مملكة «أمور» خط الدفاع الأول عن مملكة الحيثيين .

والتحمت جيوش مصر بجيوش الحيثيين حيث دارت بينهما معركة شديدة على نهر العاصى ،حارب فيها ساتى الأول بنفسه وانتصر انتصاراً تاماً ثم استولى على عاصمتهم (كرشاش) القائمة على نهر الفرات وقطع رؤوس ملوكهم وزيّن بها مركبته الحربية .

ويعتـبر قبره فى وادى الملـوك فى الأقصر من أكبـر وأعظم قبور الفـراعنة ،فداخله الطرقات والحجرات والتشعبات والانحدارات التى تنيف عن أربعمائة وسبعين قدماً تحت الأرض محفورة فى الصخر .

إن النقوش والصور لم تكن للزينة بل هى التاريخ المسـجل على الصخور والأعمدة والجدران في المعابد والمقابر.

أما جثته المومياء فقد وجـدت سليمة فى تابوت مرمرى بديع ،نقل من مـقبرته فى طيبة إلى دار الآثار بالقاهرة .

وإنك لو نظرت إلى مـوميـاء « ساتى الأول » رأيـت على وجهـه ملامح العظمـة والأبهـة والجـلال .أوصى « ساتى الأول» بالـعرش بعـد وفـاته إلى أحـد أبنائه ،لكن «رمسيس الثانى » اغـتصب الملك من أخيه كما هو مدون فى الرسوم علـى جدران معبد الكرنك حيث مـحا اسم أخـيه ولقبـه ورسمه على الحـائط المذكور ورسم نفـسه مكانه واضعاً اسمه بدلاً من اسم أخيه وملقباً نفسه بولى عهد المملكة كذباً وبهتاناً .

لقد كـان رمسيس الثـانى بالرغم مما فعله أعظم ملك ارتقى عـرش الفراعنة، وهو الذى لقبه اليونانيون بـ « سيزوستوريس » .

إنه الفرعون الذى اسـتعبد اليهود كـما ورد فى التوراة « العهد القـديم » وقد دعاه المؤرخون بفرعون الفراعنة .

كان« رمـسيس الثانى » أول مـن فتح قناة السويس ليـصل البحـر الأحمر بالبـحر المتوسط .ثم حـفرت ثانية أيام الامبـراطور« دراجان» و« هدريان» ثم حفرها عـمرو بن العاص فطمرتها الرمال إلى أن جاء « دليسيبس » فحفرها بمحاذاة الترعة القديمة .

وقد بنى « رمسـيس الثانى » أسطولاً بحرياً عظيماً مـؤلفاً من أربعمائة سفينة فـعبر البحر الأحمر ،واستولى على جزائر بحر الهند .

وامتد ملـكه فى أوربا إلى النمسا ونهر الدانوب ،وكـان أول من رسم خارطة على الورق ووضعها لدولته العظيمة وفتوحاته الهائلة .

وفى أيامه أصبح فلاسـفة اليونان تلاميذ لكهنة مصر فتـعلموا منهم الفلسفة والدين وغيرهما من العلوم والفنون ،ثم سكبوا جميع ذلك فى بوتقة جديدة نشروها فى العالم تحت اسم الفلسـفة اليـونانية ،التى ابتـدأت بـ « تاليس » وانتـهت بـ « أرسطوطاليس » وانتشـرت الـفلسـفة والعـلوم فى أيـام الأسـرة التاسـعـة عشرة ،فـشجع ملوكـها أهـل الأدب والشعر وأحاطوا العرش بالأدباء والشعراء أمثال « يانتور» و« كاكايـو» و«النسـتين»

ويقال : إن قـصة « على بابا » المشـهورة مـأخوذة عن أصل مـصرى قديم يـتعلق بهجوم ضباط مصريين على « يافا » أيام تحتمس .

ونقل « رمسيس الثانى » عاصمـة ملكه من « طيبة » إلى « تنيس » وكثر على أيامه وجود السوريين والفينيقيين فى مصر وأصبح للفينيقيين (اللبنانيين) حى مخصوص بمنف ومعابد جميلة لآلهتهم « بعل » و« عشتروت» .

وأخذت الكلمات الفينيقية تندمج فى اللغة المصرية وأخذ كتاب ذلك العصر ينمقون ويزينون كتاباتهم باستعمال بعض مفرداتهـا وكان لـ « رمسيس الثانى » ابنة أسماها اسماً فينيقياً وهو« بنت إناث» .

وأصبح رئيس الشرطة للقصر الملكى فينيـقياً ويدعى « بن عوزن» واشترك فى إدارة الحكم المصرى .

وتمكن ضابط بحـرى فينيقى يدعـى « بن إناث» من زواج كريمته من ابن« رمـسيس الثانى»،لذا كـان معظم المبـانى والآثار الباقيـة فى مصر الآن هـى من عهد « رمـسيس الثانى»،فقد ملأ مصر هياكل ومعابد من تانيس إلى بلاد النوبة .

كما حوت مائـدة فرعون أجمل الزينات وأدوات الترف من فينيقيـا وسوريا وقبرص وخيتا وما بين النهرين.

« البترون » قلعة قديمة بناها أهل صيدا للدفاع وصد الهجوم الآتى من الشمال نظراً لوقـوعهـا عند مـدخل الطريق الذى يؤدى إلى « رأس فـانيال » المعـروف الآن (برأس الشقـعة) الذى يسيطر على الموقـف الحربى للدفاع عن المدينة المقـدسة « جبـيل » سار «رمسيـس الثانى » من « بترون » إلى بلدة جيـفارنوس (أنفه) ومنها مـشى فى غابات الزيتون الواسعة فى الكورة ماراً بطريق الأرز زحفاً بجيشه إلى المكان الذى تقع فيه مدينة طرابلس الآن ولم تكن مـدينة طرابلس معروفـة ذلك الحين بل كان مكانهـا ثلاث قرى صغيرة، هى « محله » و « كـايز » و « مايز » وهذه القرى اتحدت بمرور الزمن وتألفت منها مدينة « طرابلس » ومعناها المدن الثلاث.

ومن المدن الثلاثة إلى « سـميره » (رأس الشمـر) بالقرب من اللاذقيـة على النهر الكبيـر ومن هناك قام بجيـشه لمحاربة الحـيثيـين فى « قادش » على نهر العـاصى وكان الحيثيون دولة قوية عظيمة.

معركة قادش على نهر العاصى ١٢٨٨ قبل الميلاد :

اتبع « رمسيس الثانى » خطة والده ساتي الأول فى الغـزو و الحرب فابتدأ بإخضاع الشاطىء الفينيقى ليحمى ظهر جنوده فى سيرهم شمالاً نحو مملكة الحيثيين.

وهبّ منث الحيـثيين المدعو « مـنلا » وجمع حوله ملوك « مـحار » و « ارواد » و «كنعان » و « حلب » و « بعلبك » وملوك آسيا الصغرى وزحف « رمسيس الثانى » فى مقدمـة فيلق آمون نحو نهـر « الأورنتس » مختـرقـاً سلسلة جبال لبنان الشامـخة. وبلغ «رمسيس » مدينة « قادش ».

وانسحب الملك « منلا » إلى شرقى عاصمته متخذاً مكاناً حربياً ممتازاً.

ثم عبر نهر الأورنتس قائد جيـشه العظيم المؤلف من جيوش ممالك عديدة وشطروا فيـالق « رمسـيس » إلى شطرين واتسـعت مقـدمة جـيوش الحـيثيين وطوقوا جـيوش «رمسيس» المعسكر المصرى بأكمله. وكاد الجيش المصرى أن يقع فريسة باردة لجيش ملوك الحيثيين.

حينئذ أسـرع « رمسيس » بنفسه وهو يقـود عجلته الحربية بنفـسه مختـرقـاً جيوش الأعداء فأوقع فيهم الرعب والذعر واندفع كثير منهم إلى النهر وغرقوا فيه حتى أن ملك « حلب » غرق فى النهر كما صورت الرسوم المنقوشة على أعمدة هيكل الكرنك.

لكن المصريين رغم البطولة الهـائلة التى قام بها « رمسـيس » أكرهوا على التقـهقر وكاد « رمسـيس » أن يخسر المعركة. بل كـان الخوف عظيماً أن يقع « رمسـيس » نفسه أسيراً بيد الحيثيين.

لكن جيوش الحيثيين وجدت أمتعة المصريين وثيابهم وعجلاتهم مبعثرة أمامهم بكثرة فأخذوا فى السلب والنهب وتركوا جيش مصر يفلت من أيديهم.

ولو انتبهوا لمطاردة الجيش المصرى لقضوا عليه القضاء المبرم.

في هذا الحين وصلت إمدادات عظيمة من الفيالق المصرية المتأخرة. فسار «رمسيس» في مقدمتها وكر راجعاً على جيوش الحيثيين فوجدهم منهمكين بتوزيع الأسلاب والغنائم فأبادهم عن آخرهم وإنك لتجد تاريخ هذه المعركة العظيمة منقوشاً بالصور والرسوم على جدران المعابد والهياكل المصرية بالكرنك.

وتعد معركة « قادش » من أعظم معارك التاريخ وقد أبدع شعراء ذلك العصر بوصف هذه المعركة.

وأرسل ملك الحيثيين رسلاً إلى « رمسيس » يطلب منه الصلح فوافق « رمسيس » على ذلك وعقدت معاهدة بين الدولتين وكانت هذه المعاهدة أقدم معاهدة دولية في التاريخ.

وزار ملك الحيثيين « خيتي » مصر بعد ذلك وحضر الاحتفال بزواج ابنته الملكة «معات نفرو رع » إلى « رمسيس الثاني ».

ومن وقتئذ لم يخض « رمسيس » ميدان القتال واكتفى بالمناوشات الصغيرة التي نشبت بينه وبين اللوبيين وأهل النوبة بإرسال قواده للقيام بها وتفرغ هو للأعمال الداخلية حيث شيد عدداً عظيماً من المباني في جميع أنحاء البلاد وأهم ماقام به من ذلك أنه أتم المعبد الذي بدأه والده بطيبة وبنى لنفسه هناك معبداً جميلاً يعرف « بالرمسيوم » وأتم البهو ذا الأعمدة الذي بدأه جده « رمسيس الأول » بمعبد الكرنك، وقد أكثر « رمسيس » من إقامة المسلات وتزيين مبانيه بالتماثيل ولاسيما تماثيله ذوات الحجم الهائل التي من أهمها التمثال الذي أقامه بمدينة « تنيس » بالوجه البحري وكان علوه نحو ٢٧ متراً ووزنه نحو ٩٠٠ طن والتمثال الذي مازالت بقاياه « بالرمسيوم » كان يزن ١٠٠٠ طن. وقد عثر حديثاً على تمثال له آخر هائل بالبدرشين وهو غاية في الجمال. وله تمثال من المحبب بدار عاديات « تورين » بإيطاليا لا يزال حافظاً لرونقه إلى الآن.

وبعد ذلك انتقل إلى الوجه البحري وأخذ يعيد إليه رونقه القديم فصارت « تنيس » مدينة عظيمة زاهرة وشيد معبداً بها من أفخر المعابد، وشيَّد « رمسيس » بلداناً جديدة بالوجه البحري منها بلدة في شمال عين شمس تعرف آثارها الآن بـ « تل اليهودية ».

ومما لاجدال فيه أنه كان كثير الفخر شديد التظاهر بحروبه وانتصاراته على الآثار كما كان أيضاً يكثر من زوجاته حتى بلغ عدد أولاده البنين أكثر من مائة ذكر وما يقرب من خمسين من الإناث. ويتضح من ذلك أنه أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفادها نحو أربعمائة سنة حتى صار اسم « رمسيس » مرادفاً لألقاب الإمارة وعلو الشأن ولما عجز « رمسيس » عن العثور على زوجات يلقن بالاقتران بأنجاله زوج أحدهم بكريمة ربان سفينة سورى.

ومن المعروف أنه كان يفتخر كثيراً بأسرته فرسم أفرادها على جدر المعابد ذكوراً وإناثاً صفوفاً صفوفاً ورافقه أولاده فى حروبه الأولى كقواد لفرق الجيش.

وكان أحب أولاده إليه المدعو « خامويس » الذى عين رئيس الكهنة « بتاح » «بمنف» لكن هذه المحبة شملت أيضاً كل الأسرة لأنه رسمهم جميعاً حتى الزوجات والكريمات على آثاره.

ولما مضى على توليته ثلاثون عاماً أقام لذلك احتفالاً عظيماً عهد إدارته إلى نجله خامويس ومما يدل على حبه الشديد للمرح والسرور أيضاً أنه عاش بعد هذا الحفل مايزيد عن عشرين عاماً أقام فى أثنائها مالا يقل عن تسعة احتفالات بين كل واحد والآخر مدة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات. لذلك كانت أعياد هذا الملك أكثر عدداً من أى فرعون سابق.

لذا استمر القوم يتحدثون « برمسيس الثانى » فى حكاياتهم لأكثر من ألف عام بعد وفاته وتوفى أنجال هذا الملك بمرور الزمن الواحد بعد الآخر ومن بينهم النجل العزيز «خامويس» . ولم يتمكن إلا الثالث عشر من أنجاله من إرث أبيه.

وفى آخر أيامه أصيب بالعمى واضمحلال السمع وتوفى وقد بلغ نيفاً وتسعين سنة أى بعد اعتلائه العرش بـ ٦٧ عاماً وقد استمر عشرة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته بربع قرن تقريباً وتمنى أحدهم أن يعمر ويحكم مصر سبعة وستين سنة مثل حكم سلفه العظيم وتمثلت فى كل أعمال ذريته الشجاعة والعزة بدرجات متباينة كما جرت على أثره مدة مائة وخمسين سنة تحتم فى أثنائها على كل فرعون أن يسمى

رمسيس لكن الأمة المصرية أخذت تضمحل ولذلك كانت همه هؤلاء الرمامسة غير كافية لإرجاع شأنها العظيم القديم وتوسيع ممتلكاتها.

وتولى العرش بعد « رمسيس الثانى » « منفتاح » الذى ظلت علاقته مع الحيثيين ودية والفضل فى ذلك إلى المعاهدة التى عقدها والده مع هؤلاء القوم منذ نحو ست وأربعين سنة ودلتنا الآثار أن جلالته أرسل إلى الحيثيين سفناً مشحونة حبوباً لدرء المجاعة التى حلت بهم ويرجح أنه تبرع بها جوداً وسخاء ولكن هذا الود وهذا السلام لم يدم طويلاً ففى نهاية السنة الثانية من حكمه حارب حروباً كثيرة لحماية الملك، فأطفأ نيران الثورة فى فلسطين وسوريا وبعد أن صد هجمات اللوبيين الذين اتفقوا مع سكان جزر البحر الأبيض وهاجموا مصر من الغرب فردهم على أعقابهم وغنم منهم غنائم كثيرة وأسر عدداً كبيراً من رجالهم.

وكان «منفتاح » مولعاً بالمبانى ولم يكتف بما أمكنه تشييده، بل فعل ما فعله أبوه من قبله، إذ كان يمحو أسماء الملوك من الآثار التى شيدوها وينقش اسمه مكانها، وقد فعل ذلك أيضاً بكثير من آثار والده وكأن أباه لاقى جزاءه على يد ولده. ويرى البعض أن «منفتاح» هذا هو فرعون موسى وأنه الذى خرج فى عهد بنى اسرائيل من مصر ولكن ذلك القول أو الرأى لم يستند إلى إثبات. وجاء بعد « منفتاح » « سيتى الثانى » ولم يتم فى أيامه شئ عظيم وحدث بعده نزاع كبير فى شأن من يخلفه أفضى إلى تقسيم السلطة بين الأشراف وعمال النواحى وكثرت الفوضى والمجاعات.

وجلس على العرش عدة أشخاص حكم أحدهم بعد الآخر مدداً وجيزة. فانتهز اللوبيون هذه الفرصة وزحفوا على الوجه البحرى مرة أخرى إلى أن استولى على الملك رجل قوى يدعى « ستنخت » فاستأصلهم من مصر وأعاد السكينة إلى البلاد. ولكن سرعان ما توفى فخلفه فى الحكم ابنه « رمسيس الثالث » .



البـــاب الثـــانى

التاريخ الحديث

الفصل الأول

العصر الذهبى

« رمسيس الثالث » هو أول ملوك الأسرة العشرين من ١٢٠٥ إلى ١٠٩٠ قبل الميلاد.

تولى « رمسيس الثالث » عرش الدولة وكانت الأخطار تهددها من كل جانب، فتمكن من حفظها من الخطر بجده وشدة بأسه وإعادة جانب كبير من مجدها.

كان هناك أقوام تقطن جزائر البحر الأبيض فى ذلك العهد أطلق عليهم المصريون «سكان البحر» أخذوا يفدون على مصر السفلى من جزر « أقريطش » و « كريت » و «صقلية » وغيرها ثم تحالفوا مع اللوبيين على غزو الوجه البحرى وكان « رمسيس » قد نظم الجيش وعززهم بالأشداء من الجنود المرتزقة.

فسار إليهم فى السنة الخامسة من حكمه وهزمهم شر هزيمة فى البر والبحر وكان قوم آخرون من « سكان البحر » قد زحفوا على الشام بعجلاتهم الحربية ومعهم نساؤهم وأولادهم وبضائعهم وماشيتهم كأنهم ينوون الإقامة فيها ووصلوا فى فتوحهم إلى نهر الفرات ثم هموا بالزحف إلى مصر، فقاد رمسيس جيشاً وأسطولاً فى السنة الثامنة من حكمه وسار لملاقاتهم فهزمهم براً على نهر « العاصى » وبحراً على الشواطئ الفينيقية. فخضعوا له ودفعوا إليه الجزية ولم يحاولوا الخروج عليه بعد ذلك قط.

ولكن يبدو أنه كان عاشقاً للحروب فلم يلبث كثيراً حتى خرج فى السنة الحادية عشرة من حكمه على اللوبيين الذين أغاروا على شمالى مصر من الغرب وكان بعض قبائل المغرب قد أجلاهم إليها فردهم « رمسيس » على أعقابهم بعد أن ألحق بهم خسائر

كبيرة، ولم يحاولوا بعد ذلك غزو مصر وإن كانوا لم يمسكوا عن القدوم إليها طلباً للرزق بالخدمة فى الجيش وغير ذلك، وفى السنة الثالثة عشرة من حكمه ذهب «رمسيس» ثانية للشام ليتم إخضاع تلك الجهات ثم نظم ممالكه الآسيوية وحصن حدودها. وبذلك عادت السكينة إلى بلاد الدولة. ثم استراح بعد هذه الحروب الأربع والتفت إلى شئون الدولة الداخلية.

ولم يكن « رمسيس » حاكماً فقط بقدر ما كان قائداً محنكاً فى أصول الحرب، فقد كان للكهنة نفوذ كبير عليه فوهب للمعابد كثيراً من الثروة والأرض فوق الكثير الذى حازوه بالتدريج من قبله حتى أصبحت ممتلكاتهم فى أيامه تقدر بنحو ١٥ ٪ من مجموع الأراضى المصرية ولم تقل مواليهم عن ٢٪ من عدد سكان مصر وكان لهم ١٦٩ مدينة فى مصر وسوريا وبلاد الكوش.

وكان أعظم هؤلاء الكهنة ثروة كهنة « آمون » بمدينة « طيبة » فقد كان لهم ما لا يقل عن ثلثى ما لجموع الكهنة. وقد ساعدهم ذلك فى عهد الملوك الضعفاء الذين خلفوا « رمسيس الثالث » على ابتزاز كثير من السلطة السياسية.

أدى ازدياد قوة الكهنة بالطبع إلى اضمحلال قوة الملوك. فاستعانوا على ذلك بالإكثار من الجنود المأجورة. وقد كان هؤلاء الجنود والكهنة سبباً فى كثير من الحروب التى نشبت بعد فى مصر.

□ الأسرة الحادية والعشرون :ـ (من ١٠٩٠ إلى ٩٤٥ قبل الميلاد)

ضعف نفوذ الملك فى أيام رمسيس الثانى عشر حتى أن « سمندس » أحد أمراء «تنيس» تمكن من الاستيلاء على جميع مصر الشمالية وجعل نفسه ملكاً عليها فكان بذلك مؤسساً لهذه الأسرة.

فلم يسع « رمسيس الثانى عشر » سوى الرجوع إلى طيبة، ولم يكن له أى أمر على البلاد سوى أنه ملك بالاسم فقط أما الفعل فترك للكهنة.

ولما انتهت أيامه خلفه رئيس الكهنة « حرحور » ملكاً على الصعيد. وفى هذه الأيام

كانت مصـر قد فقدت نفوذها فى مستعمراتها سوى بلاد النوبة. حـتى أن « حرحور » عندما أرسل مندوباً إلى بلاد لبنان ليحضر شيئاً من خشب الأرز لم يعامل هذا المندوب معاملة حسنة فى الطريق، ولما قابل الأمـير امتنع عن إعطائه الخشب. ثم قبل إعطاءه إياه على شرط أن يأتيه ببعض الهدايا النفيسة من مصر.

وتنازل « جرحـور » عن الملك لابنه « منخبرا » الذى تزوج أميـرة من ذرية « ساتى الأول » ، ليجعل مركز ملكه شرعياً أمام الشعب.

وكان حكم الكهنة بطبيعة عقليتهم ومـركزهم حكماً هادئاً انتشر فيه الأمن والسلام والطمأنينـة لكن الشعوب المحكومـة والمغلوبة على أمرها ثارت عندمـا شعـرت بتراخى الجيش نحو الفتح وحب الحرب وأن ملوكهم أصبحوا كهنة مسالمين.

ولكن أهم شواغلهم هى المحافظة على جثث ملوك مصر الأقدمين لما رأوه من عبث نباشى القبور بها.

ولما أعيتهم الحيلة فى نقلهم من مقـبرة إلى أخرى وضعوها فى مكان خفى بالقرب من معـبد « الدير البحـرى » وهنالك بقيت نحـو ثلاثة آلاف من السنين بدون أن تصل إليها يد السرقة حتى جاءت نهضـة البحث عن الآثار القديمة فى عصرنا فكشفت مكانها وانتهى الأمر بنقلها إلى دار العاديات المصـرية بالقاهرة حيث هى الآن. وبعد ذلك أعلن الأشوريون اسـتقلالهم عن مـصر. وقام الملك داود فى فلسطين وأسس الدولة اليـهودية الجديدة واستطاع سليمان، بفضل كهنة آمون وحبهم للسلام أن يؤسس عرشاً عظيماً يمتد من عريش مصر حتى نهر الفرات، ولولا حكم الكهنة فى مصر لما استطاع يهود فلسطين أن يضعوا أساس الملك العظيم فى عهد داود وسليمان.

وكان عـدد الذين يخدمـون فى هياكل آمون يـزيد عن سبعـة وثمانين ألف نسـمة وكانت هياكل آمون تملك من أطيان مصر نحو خمسمائة وثلاثين ألف فدان.

وكما ذكـرت آنفاً أن كهنة «آمـون» كانت لهم اليد الطولى فى خراب الامـبراطورية المصرية وتزوج الملك «سليمـان» ابنة فرعون مصر « باساب كـونت » آخر فراعنة الأسرة

الحادية والعشرين وتعلم من الفراعنة فن العمارة والبناء فبنى هيكله المشهور فى أورشليم ولاشك أن الفنيقيين لـهم الفضل الأكبر فى بناء هيكل «سليـمان» لأن الصناع المهرة أتوا من صور وصـيدا وجبـيل لقد أرسلهم « حيـرام » ملك صور وعلى رأسهم «حـيرام » المهندس المعمارى.

لكن زواج «سليمان» بأمـيرة مصرية ساعـد على أقتباس هندسة هيـاكل مصر وفن البناء فى معابدها لذا فإن هناك شبهاً كبيراً بين هيكل سليمان والهياكل المصرية القديمة.

فالعمـودان « چاكى » و « بوعاز » الواقعان فى مـدخل الهيكل أخذ رسمـهما عن المسلات القائمة فى مدخل هيكل الكرنك.

وانتهت هذه الأسـرة بوفاة آخر ملوكـها « هوباسبنتـا » الذى قضى المصريون مـعه عصراً من الاضمحلال نظراً لاستخدامه جنوداً من اللوبيين فى جيشه.

وكان قادة هؤلاء الجنود من بنى جنسهم فاستـوطنوا المدن الكبيرة وصيروا لهم مالاً وعتاداً فى حين كان الحكام الوطنيون يضعف شأنهم يوماً بعد يوم.

□ الأسرة الثانية والعشرون : ـ (من ٩٤٥ إلى ٧١٢ قبل الميلاد)

أسسـها « شـيشنق » وهو من أصل فـينيقى رغم أن المؤرخين يعـدون به إلى ملوك الليبـيين. كان والده المسمى « نمرود » لبنانيـاً هاجر إلى مصـر ثم أصبح قائداً للجـيوش المصرية بأجمعها.

وأخيراً انتزع الملك من يد الكهنة وتزوج أميرة منهم ليـجعل حقه فى العرش شرعياً وقـانونياً. ونقل ملكه إلـى «بسطة» بدلاً من «طيبـة» ونقل بمديرية الشـرقيـة فى المكان المعروف الآن « بتل بسطة » بالقرب من الزقازيق ليكون قريباً من فينيقيا وبعيداً عن طيبة وممفيس.

وخـاف فرعـون « شيـشنق » أن يعود الكهـنة إلى العرش فـوضع قانوناً لا يجـوز بمقتضـاه أن يصبح الكهنة ملوكاً ولا أن يتولوا أى وظيـفة بالدولة. ويذكر أن هذا الملك

كـان يحب جمع المال لذا عنـدما استغـاث به ملك اسرائـيل ذهب إلى أورشليم بألف ومائتى مركبة وستين ألف فارس وحارب « رحـبعام » بن سليمان الملك وافتتح فلسطين ونهب هيكل الملك سليمان.

وكان سليـمان الملك قد مـات فى تلك الأثناء بعد أن وصلت أخبـار غناه الفاحش وثروته العظيمة إلى مصر مما أطمع فراعنة مصر بكنوز سليمان.

فعندما ذهـب « شيشنق » إلى أورشليم أخذ خـزائن بيت الرب وبيت الملك وجمع أتراس الذهب التى عملها سـليمان، وهذه الحروب مرسومـة على حائط هيكل الكرنك فى الأقصر.

وتوفى شيشنق فتولى الملك بعده ابنه « أوسرتسن الأول » ثم جاءت مملكة « نينوى» الغنية العظيمة التى عبرت الصحراء فيما بعد واستولت على مملكة مصر .

□ الأسرة الثالثة والعشرون : ـ (من ٧٤٥ إلى ٧١٨ قبل الميلاد)

وضع أساسها « بدبست » الفرعون ولقب نفـسه « من آمون » أى حبيب آمون. ثم جـاء بعده « أسـركون الثـالث » الذى ازداد ضـعف الملك على يديه ولم يبق له سـوى «بسطه». وكان فى كل مدينة كبيرة من مدن الوجه البحرى أمير ينازعه السلطة فظهر من بين هؤلاء الأمراء رجل قوى يدعى « تونخت » وهو أمير « سايس » (صا الحجر) التى تقع بين طنطا وكفر الزيات. فـأخضع جميع الأمراء المجـاورين له فى الجزء الغربى من مصر السفلى ثم أغار على الصعيـد حتى استولى على مدينة « هرموبوليس » وعند ذلك أرسل إليه « بعنخى » جيشاً أرجعـه إلى أرضه، و «بعنخى » هذا أحد ملوك الصعيد ثم شرع « بعنخى » فى الزحف على الشمال فنزل على منف واستولى عليها بعد عناء كبير فى البحـر والبر وعند ذلك جاء إليه ملوك المقـاطعات المختلفة وأظهـروا له الطاعة ومن بينهم « أسركون الثالث » الذى لم تزد مكانته عن مكانة غيره من الأمراء أما « توخنت » فامتنع أولاً عن تقديم الطاعـة، ولكنه قبل ذلك أخيراً وأصبح الحاكم على جـميع مصر فرعوناً نوبياً.

وبعد أن جلا « بعنخى » بجيوشه عن مصر وعاد إلى « نباتا » عاصمة دولته ثار «بخوريس » ابن تونخت أمير صا الحجر، فجمع السلطة فى يده نازعاً ما بقى من الرمق فى الأسرة الثالثة والعشرين واستولى على سرير الملك المصرى السفلى حوالى سنة ٧١٨ ق.م وقد اعتبر « بخوريس » مؤسساً.

□ الأسرة الرابعة والعشرون :ـ (من ٧١٨ إلى ٧١٤ قبل الميلاد)

حيث انه لم يستدل على ملك آخر أسس هذه الأسرة. وبعد جلاء « بعنخى » عن مصر بنحو عشر سنين ظهرت سلطة النوبة فى الشمال مرة ثانية. إذ قام « سباكون » أخو « بعنخى » وخليفته وثبت قدم النوبيين فى مصر وحارب « بوخوريس » وأحرقه ميتاً، وهكذا كانت نهاية الأسرة الرابعة والعشرين.

□ الأسرة الخامسة والعشرون :ـ (من ٧١٤ إلى ٦٦٣ قبل الميلاد)

اعتبر « سباكون » هو مؤسس هذه الأسرة حيث إن فراعنة هذه الأسرة جاءوا من الحبشة وفى هذا الوقت كان الأشوريون قد قويت شوكتهم. وامتدت فتوحهم فاستولوا على الشام وفلسطين وأصبحت حدود مصر مهددة بغاراتهم، فلما أدرك « سباكون » هذا الخطر أوعز إلى ملوك الشام بالخروج عن طاعة الآشوريين فتمكن « سرجون » ملك آشور فى ذلك الوقت من إخماد الثورة فى الشام وبابل والجزء الشمالى من دولته. وكان فراعنة مصر فى ذلك الوقت وفى هذه الأسرة يتقاضون ضريبة من يهود فلسطين مائة وزنة من الفضة ووزنة واحدة من الذهب كل عام.

ومن الملوك التى ظهرت في هذه الأسرة « نب أبوى » الذى لقب نفسه بذى القرنين وأخذ الإسكندر الكبير هذا الاسم ولقب نفسه به وأصبح « إسكندر ذو القرنين » وتوفى «سرجون » وترك لابنه « سنحاريب » أو « أبصر هدون » فى سنة ٧٠٥ ق.م دولة من أكبر الدول السامية فى هذا الوقت. وقد جاء إلى مصر عام ٦٧٢ ق.م ولكنه عاد.

ومن هنا حدثت عدة معارك بين المصريين والآشوريين بسبب مساعدة مصر لثوار الشام وظل هذا إلى سنة ٦٧٠ ق.م فدخل مصر « آشور آخى الدين » ملك آشور بجيش قوى منظم ساقه حتى أناخ به على منف واستولى عليها.

فر « طهراقة » إلى طيبة ذلك الفرعون الذى استطاع أن يعيد « سنحاريب » الآشورى إلى ما وراء مصر ولكن ما تسعفه شجاعته أمام هذا الآشورى العظيم « آشور آخى الدين » الذى بواسطته استولى الآشوريون على مصر ونصب ولاة وطنيين على الأقاليم المصرية المختلفة، وكان أعظمهم « نخاو » وهو من نسل « تونخت » وجعل فوقهم والياً آشورياً وعاد إلى بلاده.

وعندما وصل خبر عودة « آشور آخى الدين » إلى بلاده إلى مسامع « طهراقة ». عزم على الرجوع من الجنوب وجمع حوله جيوشه العظيمة وأباد حامية الآشوريين. وأدبرهم إلى بلادهم ولكن عادوا ثانية تحت قيادة الملك الآشورى « آشور بانيبال » فلم يسع «طهراقة » إلى العودة مرة أخرى إلى « طيبة » واكتفى بتولى حكم الصعيد.

ثم خلفه أخوه « تندمان » الذى قوبل بترحاب من مصر السفلى والصعيد واستطاع أن يستولى على « منف » إلى أن علم به « آشور بانيبال » الذى أخرجه من مصر السفلى عام ٦٦٠ ق.م وتبعه إلى الصعيد وحتى وصل إلى مدينة « طيبة » فدمرها.

عندما توفى « نخاو » أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنه أبسمتك الأول والياً على أملاك والده تحت إشراف الآشوريين فلما رأى أن دولة آشور مشتغلة بإخماد الثورات وتذليل البلاد المجاورة الخارجة عليها مثل « بابل » و «عيلام » وبلاد العرب. وأنها آخذة فى الاضمحلال. شرع فى تقوية سلطانه واستعان بملك « ليديا » بآسيا الصغرى على التخلص من حكم الآشوريين ثم تغلب على باقى الأمراء وأصبح بذلك مؤسساً.

□ الأسرة السادسة والعشرون :- (من ٦٦٣ إلى ٥٢٥ قبل الميلاد)

والتاريخ يعتبر « أبسمتك الأول » من أقوى فراعنة مصر وأعظمهم، ففى أيامه نهضت مصر من سباتها وتخلصت من الضعف الذى لحق بها من الفتن الداخلية والغارات الآشورية إلا أنها لم تكن فى أيام هذه النهضة كما كانت فى النهضات السالفة. إذ أصبحت الأمة فى ذلك الوقت عديمة الميل للاشتغال بالأمور الحربية ولم تولد لديها الغزوات الأخيرة حباً للحرب والقتال كما ولدت ذلك فيها غزوة الرعاة الهكسوس فى الماضى.

ولذلك أدرك « أبسمتك » أن لا حيلة له فى تحقيق أمنيته سوى بالاستعانة بالجند المرتزقة لإرجاع مجد آبائه العظام إلى بلاده، مكوناً جيشاً من الأشداء معظمهم من بلاد الإغريق القديمة وجزر البحر الأبيض وما فتئ يستعين بهم حتى أمن إغارة الآشوريين واستولى على بعض جهات فلسطين أراد « أبسمتيك » أن يعيد للبلاد مجدها ، غير أنه لم يقتصر على إحياء الحضارة القديمة بأنواعها بل عمل على الانتفاع بحضارة الأمم التى أخذت فى الظهور وأربت على المصريين فى الابتكار والابتداع فظهرت فى الفنون والصنائع دقة لم تعرف من قبل، وزال من الرسم والتصوير تلك الرموز والقيود الرسمية التى كانت تذهب فى الأزمنة الأولى بكثير من رونق الصور وروعتها حيث استخدم ولأول مرة فى عهده الحروف الأبجدية بدلاً من الكتابة الهيروغليفية وما تحتويه من صور ورسوم.

ونرى أيضاً فى عهد هذا الملك خالد الذكر أن مصر رأت عصراً جديداً فى المعرفة والعلم، فكان هذا بمثابة عصر ذهبى تجددت به دماء المصريين فى كل المجالات. حتى التجارة والانتفاع بالحضارات المجاورة حيث إنه رأى ضرورة الاختلاط بالأمم البحرية النازلة على شواطئ البحر الأبيض ممن ارتقت حضارتهم واتسعت تجارتهم وراجت صناعتهم.

لذلك جعل مدينة « سايس » مقره والمعروفة « بصا الحجر » التى تقع فى شمال مصر وسهل لهم التجارة فى بلاده فأصبح الوجه البحرى مورداً ترد إليه التجارة من البلاد الفينيقية والسورية وخاصة الإغريقية.

وقد عرفنا من قبل أن « سكان البحر » الذين منهم الإغريقيون كانوا يردون لمصر منذ القرن الثامن ق.م ولكن مجيئهم فى عهد « أبسمتك » كان مختلفاً عن ذى قبل حيث إنهم أتوا إلى مصر بكثرة ووجدوا ترحاباً من أهلها لم يجدوه من قبل.

لذا أخذ الإغريقيون فى الانتشار والاستعمار. فبعد أن ملكوا شبه الجزيرة الإغريقية وجزر الأرخبيل نزلوا فى عدة أماكن على شواطئ البحر الأبيض وكلما كانوا يحلو لهم

مكان أو جهة أوجدوا بهـا حركة تجارية وشيدوا المعامل الصناعيـة فرأى « أبسمتك » أن مجيئهم إلى بلاده واستيطانهم بهـا له فائدة عظيمـة ستعـود على مصـر. فرحب بهم ومنحهم أراضـي يقيمـون بها بالقـرب من « بسطه » وكان لهم بمنف أيضـاً حى خاص بهم، فاستوطنوا بمصر ونشروا فيها تجارتهم وشيدوا مصانعهم وبالطبع هذا العدد العظيم بالإضافة إلى الجـيش المأجور من الإغريق كان له عظيم الأثر على حالة البـلاد، غير أن تأثيرهم الأكـبر كان فى الملوك لا فى الأمة ذاتـها، وذلك لشدة تعصـبها وتمدحهـا بمجد أجدادها السالفين.

وقد بلغت شوكـة الإغريق فى مصر درجة كـادت تضعف سلطان الملك . على أن المصريين أنفســهم كان لهم تأثير ملحـوظ ومحسوس فى الإغريق فـقد نقل هؤلاء عنهم شيئاً كبيراً من أصول التصوير وعمل التمـاثيل ، كما نقلوا كثيراً من أعمالهم وفلسفتهم ولاسيما ما يختص بالإلهيات. لذا نجـد أن فى عهد هذا الملك انتشرت الحضارة المصرية والديانة المصرية فى اليونان وجميع شواطئ البحر المتوسط.

وبعد أن توفى « أبسمتيك » خلفـه ابنه « نخاو » سنة ٦٠٩ ق.م فتبع خطة أبيه فى السعى وراء اسـترجاع مجـد مصر لاسـترداد الممالك التى كانت لها فى أيام « تحـتمس الثالث » و « رمـسيس الثـانى » فاسـتمر فى إدخـال الأغريق فى مـصر وترقيـة الفنون والصنائع وزاد كثيراً فى عدد الجيش وبنى أسطولاً حربيـاً للبحر الأبيض والبحر الأحمر وفى أول سنة من توليـه شـرع فى استـرداد ممتلكات مـصر فى سـوريا ولما كـانت دولة الآشوريين إذ ذاك فى أقصى درجـات الضعف واضمحلال تمكن من غزو جـميع سوريا واسترداد جميع الأملاك الآسيـوية التى امتلكها أجداده من قبل ولكن من سوء الحظ لم تبق هذه البلاد فى يده طويلاً.

وفى أقل من سنتين كـان البـابليون والميـديون تمكنوا من التـغلب على دولة آشـور واقتسام أملاكها فكانت سوريا مـن نصيب ملك البابليين « نبوبولصار » وولده « نبوخذ نصر » أو « بختنصـر ». أرسل الملك ابنه بجيش يحارب « نخاو » فهزم المصـريين بموقعة «قرقمـيش» سنة ٦٠٥ ق.م المعروفة « بغزه » الآن، ولـولا رجوع « بختنصر » لمعـرفته بوفاة والده لكان البابليون استولوا على الديار المصرية.

ومن بعـد هذه الواقعـة عدل « نخـاو » عن فكرة غزو الأراضى الآسـيوية وتـفرغ للإصلاحات الداخليـة. ومن أهم أعماله فى حفر الخليج المـوصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق فرع النيل الشرقى الذى أنشـأه « سيتى الأول » و « رمسيس الثانى » ولكنه لم يتمكن من إتمام عمله.

ومن أعماله أيضاً أنه أرسل عدداً من الفلاحين الفينيقيين للطواف حول إفريقية فأتموا السياحة فى ثلاث سنوات.

وخلفه بعـد وفاته ابنه « أبسماتـيك الثانى » الذى أصبحت مـصر فى عهده مـركزاً تجارياً هاماً يلتقى فيه الآشوريون والفينيقيون واليونانيون والرومانيون.

وكما أمضت مصـر معاهدات تجارية اقتصادية مع ملك صور وصـيدا وجبيل . أما بالنسبة للحروب فى عهده فـقد شن غزواً على بلاد النوبة حتى بلغ الجندل الثانى ولكن للأسف لم يكن لذلك نتيجة باقية.

وبعد « أبسـمتيك الثانى » جـاء « أبريس » وقد عرف على الآثار باسم « حـفرع » وهذا الملك ورث عن أجداده الشجاعة وعلو الهمة وحب الفنون، وقد شيد بمدينة « صا الحجـر » معـبداً من أجـمل المعابد التى بنيـت حتى الآن حيـث نصب أمامـه عدداً من التماثيل الضخمة وأصنام أبى الهول.

وفى أول حكمـه اشترك فى غـارة على البابليين ولـم يَجْنِ من ورائها ثمـرة سوى الاستيلاء على المدن الفينيقية.

وفى أواخر أيامـه أرسل قوة لمسـاعدة اللوبيين على الإغـريق المستعـمرين لمقـاطعة «قيـرينيـقيا » بـشمال أفـريقـية « برقـة ». وبالطبع لم يرسل أحد من الجنود الإغـريق المأجورين فانهزمت الجنود الوطنية شر هزيمة واختاروا « أحمس الثانى » ملكاً للبلاد سنة ٥٦٩ ق.م بعد أن زحف « نبوخذ نصر » بجيش عظيم على مصر وفتحها وهدم هيالكها ومعابدها وشنق « حفرع » وأقام أحد أعيان المصريين نائباً مكانه على العرش.

لكن مصـــر لم ترض بهذا الذل والهــوان والاستــعباد فــتمردت عــلى ملوك فارس وطردت حكومتهم من مصر.

وجاء « أحــمس الثانى » ليــصلح القانون المدنى فى مصــر وحتم على كل مــصرى تقديم مــخالصة لحــاكمه عن إيراده وثروته عن كل عــام وهو ما يعرف الآن فى عــصرنا بالضرائب وقد زار « صولون » المشرع الإغريقى مصر وأخذ هذا القانون وطبقه فى بلاده وترى أيضاً أن « أحــمس » نقل الجنود اليونانية إلى منف لجعــلهم حرساً خاصــاً به كما عضد الحركة التجارية وأباح لتجار الإغريق الاستيطان بمدينة « نقراطيس » أو « نقراش » فكانت بمثابة مستعمرة لهم ومنها انتشروا فى جميع أنحاء مصر وتبادلوا التجارة مع المدن التى تقع على شواطئ البحر الأبيض.

وكان فى أول أيامه على خلاف مع البابليين فأصلح ما بينه وبينهم واتفق معهم ومع الليديين وغــيرهم من الأمم الغــربية ٥٤٧ ق.م على مقــاومة دولة الفــرس التى ابتدأت فتوحها إذ ذاك تمتد شرقاً وغــرباً ولكن اتفاقهم لم يفلح فأسقط « كورش » ملك الفرس دولة بابل وغلب الميديون على أمرهم.

ولولا أن « أحمس » قد وافته المنية فى عام ٥٢٥ ق.م لرأى بعينه الجيوش الفارسية تقرع أبواب بلاده.

وكان « أحمس » أحزم ملــوك مصر وأكثرهم نشاطاً، وفى أيامه اســتولى المصريون على جزيرة قبرص فدفعت لهم الجزية وكــانت البلاد فى عهده فى رقى ونعيم حتى قال «هيرودوت » أنه كان بمصر وقتئذ ٢٠,٠٠٠ مدينة.

وواصل « كورش » انتصاره واستــولى على « ميديا » وبعض المدن المجاورة له حتى وصل إلى الليديين الذين فى ذاك الوقت كانوا على جزء كبير من الحضارة والتقدم ولهم شهرة فائقة فى الصنائع والموسيــقى والتنعُّم والبذخ ولملكهم « كرسيوس » أو (قارون) صيت هائل فى الغنى حتى ليضرب به المثل فى ذلك فلاقى « كورش » صعوبة كبيرة فى التغلب على الليــديين ولكنه تمكن بعد من ذلك بفضل قــوته ومهارته الحربيــة فانضمت

ليديا إلى بلاد الـدولة الفارسيـة أيضاً سنة ٥٤٧ ق.م وأخذ كـورش فى ضم المدن التى تقابله حتى لقب « بالأكبر » أو « مؤسس الدولة الفارسية العظيمة ».

وجاء بعده ابنه « قمبيز » الذي اتجه بجيوش جرارة لفتح البلاد التى طالما تاقت نفس سلفه إلى إخـضاعهـا . وكانت مصـر آنذاك منيعة التـحصين وكان المعـتلى للعرش ابن «أحمس الثاني » ويدعى « أبسمتيك الثالث ».

ويقول المؤرخون الإغريقـيون أنفسهم : إن أحد الجنود اليونانـية خان المصريين ودل الفرس على أسهل الطرق التى تمكنهم من الدخول إلى البـلاد فهوجمت مدينة « بلوز » (الفرمـا) بحراً وزحـفت الجيوش الفارسية على مـصر براً وبعد مقاومة شـديدة بجهتى بلوز ومنف سـقطت البلاد وأخذ قـمبيـز أبسمـتيك أسيـراً وهكذا كانت نهـاية الأسرة السادسة والعشرين .



الفصل الثانى

اضمحلال
مصــر الفرعونية

☐ الأسرة السابعة والعشرون :ـ (من ٥٢٥ إلى ٤٠٥ قبل الميلاد)

بعد أن استــولى قمبيز على مــصر أعد ثلاثة جيــوش تقصد ثلاث جهات مــختلفة الأولى « قرطاجنة » والثانية « واحة آمون » « سيوة » والثالثة « بلاد النوبة » .

فلم تفلح الأولى بسبب امتناع الفينيقــيين عن العمل مع أنهم كانوا أهم رجال سفن الجيش الفارسى وكانت الثــانية الطامة الكبرى على قمبيز إذ أن الجــيش الذى أرسله فيها قدرة ٥٠,٠٠٠ مقاتل هلك جميعهم فى الصحراء ولم يسمع عنهم شئ.

أما الثالــثة فتمكنت من غــزو بلاد النوبة لأنه عندما التقى الجيش المصــرى بجيش الفــرس عند مصب النيل الشــرقى ،وكان قــمبــيز يــعلم أن المصريين يعظمــون الكلاب والقطط ،فأمر بجمعها ووضعها فى مقدمة جيوشه ،فتوقف المصريون عن إطلاق السهام خوفاً من أن تصيب هذه الحيوانات المقدسة .

فانهزم الجــيش المصرى بقيادة « ســمانيتوس بن رمــسيس » ورجع إلى « منف » أو «منفيس» فتبعه « قــمبيز » وحاصر « منفيس» وافتتحهــا وقبض على فرعون وقتله وقتل ابنه أيضاً ثم نهب « منف » وذبح« أبيس» العجل وفرق لحمه على جنوده .

وقصد مدينة « هايس » وأخرج جثة الملك « أحـمس الثانى » من قبره وأحرقها ثم نهب مدينة طيبة وأحرق قصورها ومعابدها .وحارب ملك النوبة « نستاش» وسار إلى أن وصل إلى الشلال الثالث ولكنه لم يقطع صحراء (أبى حمد) .

وكان هذا عندما كان المؤرخ « هيرودوت » فى مصر وجاء ليشاهد مصر ويدرس تاريخها وتاريخ آثارها ووضع تاريخاً شاملاً عنها نقل أكثره مما شاهده بنفسه وما سمعه من الكهنة الذين تحدث إليهم،وذكر « هيرودوت » فى تاريخه أنه زار مصر وذهب إلى أرض المعركة وشاهد جماجم الفرس مجموعة إلى جهة وجماجم المصريين مجموعة إلى جهة أخرى ،فدرسها وفحصها فوجد أن جماجم المصريين صلبة وقاسية لأن المصريين يحلقون شعور رؤوسهم وهم صغار السن فتشتد الجمجمة وتتصلب بواسطة حرارة الشمس .

أما الفرس فكانت جماجمهم ضعيفة ولينة تثقب بسرعة وبسهولة .

وعند عودة الجنود الفارسيين من الحرب صادفتهم عاصفة رملية بالقرب من الجندل الأولى كادت تقضى على جميع رجالها .وبينما كان قمبيز يتمتع بمصر وخيراتها ،اتصل به معاونوه ليبلغوه قيام ثورة عليه فى بلاده وأن نائبه فى الملك استولى على العرش ونادى بنفسه ملكاً فأسرع بالرحيل عن مصر ،لكنه مات مسموماً فى سوريا وهو فى طريقه إلى عاصمة ملكه ويقال : إن نائبه فى الملك أرسل من وضع له سماً فى طعامه سنة ٥٢١ ق .م وجاء بعده « دارا الأول » أو « داريوس » ليتولى ملك فارس وزار مصر وأراد أن يصلح ما فعله قمبيز بالمصريين ،فدعا نفسه « ابن رع» أى « ابن الشمس»وعبد العجل أبيس ،كما أتم بناء القنال التى تصل البحر الأحمر بالنيل ،وبنى معبداً للإله آمون فى الواحة الخارجة .

وقد كان ملكاً محبوباً وعادلاً ،فتفاهم مع الكهنة وأصلح شرائع مصر وكانت له اليد الطولى فى منافع عمرانية كثيرة كما عضد التجارة وشيَّد كثيراً من المدارس وأصلح الطريق بين « قفط » وشاطىء البحر الأحمر المار بوادى الحمامات.

وكانت الضرائب التى فرضها على المصريين كبيرة وباهظة إلا أنها كانت تجبى بسهولة لتوافر الخيرات بالبلاد .

وفى عام ٤٩٠ق .م سمع المصريون أن الفرس بقيادة ملكهم « داريوس » قد

خسروا معركة « ماراثون» وكانت ضد الإغريق كما كانت أعظم معركة فى العالم القديم،حيث تغلب فيها عشرون ألفاً من الإغريق على مائتى ألف من الفرس فقام المصريون وثاروا على حامية الفرس فى منف وقتلوا زعيمهم « كاباتس » ثم قتلوا جميع الحامية التى تركها الجيش الفارسى للمحافظة على مصر .

ومات « داريوس » وجاء بعده ابنه « زركسيس» أو « إجزرسيس» الذى أصر على غزو مصر وتأديب العصاة ،وبالفعل جهز جيشاً عرمرماً وقصد مصر ففتحها واستولى عليها وأدب العصاة الذين ثاروا فيها ،ثم عاد الفرس لردء ثورة أخرى قام بها المصريون فى عهد « أرتاكسرس» أو « أرتجزرسيس» ابن الملك « أجزرسيس» ،وطلب المصريون من ملك «اللوبيا» وأسطول إغريقى وأعداء الفرس مساعدة فأرسل إليهم « بركليس» زعيم أثينا جيشاً كبيراً تغلبوا به على الفرس ،لكن « أرناكسركس » جمع ثلاثمائة ألف جندى فانتصر على جيوش مصر وجيوش اليونان معاً .

وبعد ذلك بقيت البلاد هادئة فى زمن « أجزرسيس الثانى » ومعظم أيام « دارا الثانى» إلى أن هلك فتمكن المصريون بمساعدة الإغريق من التخلص من الفرس حيث قام « نافاروت » الفرعون عام ٤٠٥ ق.م بثورة كبرى على الفرس وطردهم من مصر وأسس عرش الفراعنة من جديد .

□ الأسرة الثامنة والعشرون من ٤٠٥ إلى ٣٩٩ ق.م

تولى تأسيس هذه الأسرة ملوك من « صاالحجر» أو « سايس» حيث استكمل «أمن روت » أو « أمرتوس » تطهير مصر من الفرس وجلس على سرير الحكم لمدة ستة أعوام ولم يخالفه أحد من نسله .

□ الأسرة التاسعة والعشرون : ٣٩٩ إلى ٣٧٨ قبل الميلاد

فراعنتها من « مندس » ومكثوا كثيراً فى الحكم ولم يفعلوا أشياء ذات ذكرى .

□ الأسرة الثلاثون : من ٣٧٨ إلى ٣٤٠قبل الميلاد

أسسها « تخهروهبت» أو « نكتانيس الأول » أو« نختنبو الأول» أو « نقطانب» الذى حارب الفرس وطردهم من مصر ونهضت مصر فى عصره من رقادها نهضة لم تكن إلا

بمثابة صحوة الموت إذ أنه فى أيام آخر ملوك هذه الأسرة المدعو « نختنبو الثانى» عاد الفرس مرة أخرى و على رأسهم « أوكوس» لمحاربة مصر واستطاعوا أن يدخلوا مصر بعد أن ظلوا خارجها قرابة ٦٥عاماً وذلك عام ٣٤٠ق.م واضطر الملك الفرعونى «نختنبو الثانى » من الهروب إلى الحبشة حاملاً معه نفائس عرشه الذى كان يقع فى سمنود ،وترك مصر لقمة سائغة فى أفواه الفرس الذين نهبوا كنوزها وجميع ما وجدوا فى خزائنها ومعابدها .

وقد ذكر المؤرخون أن « نختنبو» بعد أن ذهب للحبشة عاد لمقدونيا ويقال : إنه والد الإسكندر الكبير .وظلت مصر خاضعة للفرس حتى جاء لينقذها الإسكندر الكبير عام ٣٣٢قبل الميلاد.



الفصل الثالث

مميــــزات
مصر الفرعونية

وهكذا عزيزى القارىء أغلق التاريخ صفحاته على تاريخ مصر الفرعونى الذى كما رأيت أنه زاخر وحافل بالمعارك والانتصارات .

وكمـا ترى أن المصرى منذ نواة التاريخ وهو يـتحلى بالصبـر والجلد ولا ولن ييأس هذا المصرى الذى طرد الهكسوس والفرس والصليبيين والفرنسيين والإنجليز والإسرائيليين أخيراً، وكل هذا لتـحلى مصر بموقع فريد لم تحظ به جـميع البلاد فهى البوابة الشـرقية لقارة أفريقيا بأسرها .

وكما رأيت أيضاً أن قناة السويس هى السـبب الرئيسى وراء معظم الاعتداءات التى شنت على مصر ولكن مصـر مازالت ولاتزال قوية شامخة أبية تأبى الاستـعباد حتى لو كانت مكرمة فيه ومصانة لأنها حرة لا تحب القيود حتى ولو كانت من الذهب الخالص المرصع بأندر الأحجار الكريمة .

عــزيزى القــارىء بعــد أن أسـدلنا الستـار على التاريخ الفـرعونى الجـميل الذى يجـب عليــك أن تفـتخـر بـه بيــن كل الشـعـوب لما فيــه من أصـالة ومـجـد وعـز وافتخـار فـسنتـناول فى الصفحـات التالية عـرضاً لأهم الأشياء التى تميز بهـا هذا العهد فهيا بنا .

أولاً : التحنيط

من أهم مـا ميـز الفراعنة تحنيط مـوتاهم والفكرة وراء هذا ليس حـباً للاحـتفـاظ بالموميـاوات ولا تخليداً لذكراها ولكن الهـدف الرئيسى وراء التحـنيط هو الإيمان المفعم الخالص بوجود حيـاة أخرى بعد الموت، وأن هناك قيامة للإنسان بعد مـوته حيث الحياة الأبدية التى لا موت فيها .

وهذا الفكر هداهم إلى بناء الأهرام والمقـابر الكثيـرة الكائنة فى طيبـة وبنى حسن والدير البحرى لأنهم اعـتبروا الروح خالدة وبعد مـفارقة الجسد فى عـوالم أخرى لكنها تحتاج إلى الجسد لتعود ثانية إلى الحياة .

فإن اضمحل الجسد وتلاشى فالواجب إيجاد مثال له من الخشب لكى تتعرف الروح عليه وتـعود إليه ،ومن هنا كـانت فكرة التحنيـط وهذا هو السر فى أن المصـريين كانوا يحفـرون رسوم أجسادهم على خـشب التوابيت ويقدر المؤرخـون أنه من زمن مينا إلى ظهور السيد المسيح حنط المصريون نحو مائتى مليون جثة ،وضعوها فى قبورها ووضعوا بجانبها الماء والطعام .

أما عن طريقة التـحنيط التى اتبعها المصرى القديم فـهى أنه يفرغ الدماغ من الأنف ويثقب البطن ويخرج الأمـعاء والكلى ويغسلوا بخمر البلح ويردهمـا ثانية. بعد أن يملأ الأمعـاء بالمر و القرفة والأطيـاب والعقاقيـر والعطور ،كما تملأ الرأس أيضـاً وبعد ذلك يدهن الجسد بالزيت المعطر ٣٠يوماً .

وبعدها يوضع فى ماء النطـرون ٤٠ يوماً ثم يلف بعد ذلك بلفائف مغـموسة بالمر بعد أن تدهن اللفائف بمـاء الصمغ للوقاية من الهواء .وهكذا تم التحنـيط وهذه العملية يقوم بها الكاهن الأكبر حيث إنها لاتعـمل لأى شخص سوى الملوك وأسرهم أما العامة فلهم طريقة أخرى فى تحنـيط أجسادهم حيث إنه يتم تنظيف الأحشـاء وتغمس فى ماء النطرون ـ الأجساد طبعاً ـ وتلف بحصير بعد تجفيفها وتدفن .

ثانياً : كتاب الموتى

هذا هو السفر الجليل والكتاب المقدس الذى قامت عليه دعائم الحياة المصرية فى عالم الأحياء وعالم الأموات .

وما كان ليدفن المصرى فى لحده إلا إذا وضع بجانبه أو نقش على قبره آيات من كتاب الموتى أو تعاويذ أو أدعية .

ويستطيع الإنسان أن يدرك من كتاب الموتى بعد قراءته أن المصريين كانوا يعتقدون خلود النفس والحياة الأبدية فى العالم الثانى ،وإن كان هذا الاعتقاد غير واضح ولا صريح .

عزيزى القارىء نحن نتحدث عن الإنسان منذ آلاف السنين ،لذا تجد أن السماء عنده غير واضحة كما هى عند اليهود والمسيحيين والمسلمين .

فقد كان المصرى القديم يتخيلها قريبة فوق مرتفعات الجبال حيث يستطيع الإنسان أن يصل إليها بسلم أو هى تحت الأرض حيث ينتقل إليها فى سفينة .

كما أن جهنم كانت فى نظره حيواناً يدعى « بابى» يفترس الموتى إذا ثبتت إدانتهم وحكم عليهم بالفناء .

ويصف لك عزيزى القارىء كتاب الموتى : الجنة والسماء والجحيم ومحاكمة الأموات وكل ما سيلاقيه الإنسان فى العالم الآخر الذى ينتقل إليه بعد وفاته .

كما يعلم كتاب الموتى الإنسان كيف يعيش ويدافع عن نفسه فى العالم الآخر؟ وكيف يتقمص صورة حيوان ثم يتحول إلى إله ،وتتخذ لجسدك أى شكل من أشكال الحيوان أو الطيور .

إن كتاب الموتى هو مجموعة التعاليم الدينية ،والتمائم والتعاويذ والعلوم والمعارف،وكل ما يحتاج إليه الميت فى العالم الآخر .

لذا يمكن أن نقول : إن كتاب الموتى هذا هو :

دائرة معارف مابعد الموت ،أو كتاب الإنسان من يوم ولادته إلى يوم مماته أو هو القوانين والشرائع الإلهية ،كما يعتبر أنه أقدم كتاب فى التاريخ .

فهو محكمة الأموات ،بقضائها ومحاميها وآلهتها ،كما هو شريعة الأحياء أيضاً تجده قانون الأموات وتجد فيه الجنة والخلود أو النار والفناء .

إن تعاليم كتاب الموتى تحفظ الجسد سالماً وتمنع عنه الفناءوالبلاءوتساعده على السكنى والوجود مع الآلهة فى النعيم .

وكان الشائع عند المصريين أن « أوزوريس » هو إله الأموات وبشفاعته ووساطته يبقى الجسد حياً فيخرج منه جسد نورى تسكنه الأرواح إلى الأبد .

ومن هنا جاءت تعاليم كتاب الموتى فى كيفية تحنيط الجسد حياً سليماً بلا عطب ولا فناء فقادهم ذلك إلى تحنيط أجسادهم .

وإنا لنعود بتاريخ كتاب الموتى، إلى الملك المصرى الأول « مينا » فقد قال الدكتور «بورج » أحد المؤرخين : إن العالم المصرى تاريخه يبدأ بتاريخ وجود هذا الكتاب كما وجد على قبر الملكة « خنام نفرت» ،زوجة « مانتى هبت» أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ،رموز هيروغليفية تفيد أن أحد فصول كتاب الموتى اكتشف فى عهد « هسيب تى» أحد ملوك الأسرة الأولى وذلك سنة ٤٢٦٦ قبل الميلاد .

ووجد مسبيرو فصولاً من هذا الكتاب على أهرام الملك « أوناس» المبنى سنة ٣٣٣٣قبل الميلاد كما وجد فى أهرام « تيتا» بسقارة فصل كامل من هذا الكتاب ويعود تاريخ هذه الأهرامات إلى سنة ٣٣٥٠قبل الميلاد .

ويرى المؤرخون أن كتاب الموتى كان معروفاً عند ملوك الأسرة الأولى، أى منذ ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وظل معمولاً به وبقوانينه وشرائعه إلى القرن الثانى بعد ظهور الديانة المسيحية وقد قادتنى البراهين التاريخية إلى الجزم بأن كتاب الموتى كتبه كهنة «هيليوبوليس» قبل ظهور « مينا » والأسرة الأولى .

ويقول كتاب الموتى : إنه كان على الميت أن يقطع سبعة جبال ،وعلى كل جبل إله يحرس هذا الجبل ،وبعد ذلك يصل إلى جنات النعيم .

ويبقى كتاب الموتى على أن « أوزوريس» هوالقاضى الأعظم لمحاكمة الأموات ويشرح كتاب الموتى رحلة الشمس بعد غيابها تحت الأرض لأن الشمس فى نظر القدماء لم تكن سوى جسم حى ومصدر كل الحياة، لذا ظن المصرى القديم أنها تسافر فى مركبها قاطعة العالم الأرضى كله إلى أن تعود فى اليوم التالى .

وإذا بحثت فى حقيقة بدء النظر إلى العالم والدين تجد أن ثالوث مصر الأول كان الشمس والأرض والنيل ،أو الأم والأب والابن وجعلوا إلهاً لكل من هؤلاء يمثلونه به.

ثالثاً: (كا) و(با)

الروح والنفس

كان الميت فى عهود قدماء المصريين عبداً للأحياء، فإذا تأخر أهله عن تقديم القرابين والمأكولات لروحه ،تعذبت تلك الروح وماتت جوعاً .

وكان اسم الروح (كا) باللغة الهيروغليفية ،و(كا) هذه ما يدعونه بالعربية القرينة أى الجسد الثانى وهى الروح التى تأتى لهذا العالم مع روحه وبكلمة أخرى هى النسخة الثانية من روحه وجسده .

أما (با) فهى النفس ،وكانت « با » بعد موت الجسد تأخذ شكل طير وتطير فى طبقات الجو .

ولكى تعيش هذه الروح بعد موت الإنسان ولا يتطرق إليها الفناء ،كانوا يضعون المأكل والمشرب فى قبره لكى تتغذى ولا تموت لأنها كانت أمينة مخلصة للجسد تبقى معه وتجلس بجواره .

وكانت الروح تخلق مع الجسد وتحل فيه وتأخذ شكله وتحتفظ بكامل شخصيته وهى التى تنهض مع الجسد فى يوم البعث .

كما أن الجسد يموت ، أما الروح فتحيا إلى الأبد . لهذا أراد المصريون تخليد الجسم بتحنيطه حتى تجده الروح وتخلد فيه ،وهذا المبدأ اعتقده الكثير من الشعوب والأمم .

إن المصريين أول من قالوا : إن روح الإنسان خالدة وأنها تنتقل بعد الموت إلى كائن آخر، وهذا هو التقمص أو التناسخ وهكذا فسرت ظاهرة التشابه بين البشر فى الشكل أو الطبع .

وقد اعتقد المصريون أن الروح تدور متقمصة من شخص إلى شخص إلى أن تكمل دورتها وهى ثلاثة آلاف سنة تعود بعدها إلى جسم الإنسان نفسه وقد ذكر المؤرخون هذه الاعتقادات ولكنى لم أجد لها أثراً فى النصوص الدينية ولا فى كتاب الموتى .

ولا يزال الكثيرون فى الهند ومختلف البلاد الشرقية يعتقدون بالجسد الثانى، وقد سرت هذه الفكرة إلى أوروبا وأمريكا ولها أتباع كثيرون فى مختلف بلاد العالم .

رابعاً : مرافعة الميت أمام القضاء الإلهى

عزيزى القارىء لو تأملت ما على جدران المعابد من نقوش ورسوم لمحاكمة ميت أو بمعنى أدق محاكمة الروح . لوجدت إبداعاً ليس فى الرسوم والنقوش فحسب بل فيما تعبر عنه تلك النقوش والتى تكاد أن تنطق لتبوح بما تحتويه من عدل وإنصاف لهذا الميت تعلم ياعزيزى أنها تلك الديانة الوحيدة التى أعطت الميت حق الدفاع عن نفسه .

ولو نظرنا لمحاكمة هذا الميت نجد أن هناك مجلس قضاء مؤلف من اثنين وأربعين قاضياً، ونجد أيضاً ميزان العدل يرتفع فى ساحة القضاء وقد وضع فى كفته اليمنى قلب الميت رمزاً لأعماله وفى الكفة اليسرى عيار الحق لوزن قلب الميت .

إن « أوزوريس » هو رئيس القضاة تجده جالساً على منصة الحكم وبجانبه الإله «تحوت » يسجل حكم المحكمة ويقف « أونوبيس» ليراقب كفتى الميزان وتتقدم الروح الجسد أمام القضاة وتدافع عن نفسها قائلة :

لم أرتكب منكراً ولم أخن أحداً .

لم أشهد زوراً ، ولا لطخت اسم أبى بالعار.

لم يأكل قلبى الحسد ، ولم أطلب مال غيرى .

لم أقتل ، لم أزن ، لم أسرق .

لم أشته امرأة قريبى ، أو امرأة جارى.

لم أحرز مالاً حراماً ، ولم أبع القمح بثمن غال .

لم أخالف نظام الرى ، ولم أتلف مزروعات أحد .

لم أظلم اليتيم ، والأرملة ، والأعمى ، والأعرج ، والشيخ المتقدم فى السن.

لقد أطعمت الفقير ، وسقيت العطشان .

إلى آخر ما هنالك من الوصايا العشر المعروفة فى توراة العهد القديم ، ثم تجلس آلهة الحق والعدل فى كفة الميزان اليمنى ويوضع قلب الميت في الكفة اليسرى ، فإن وجد قلبه ناقصاً افترسه الوحش الواقف بانتظاره ، وكان يوضع مطهر معد بجانب المحكمة لتطهير النفوس التى ارتكبت هفوات صغيرة .

خامساً : ديانة المصريين

هى صورة مصغرة من الديانة المسيحية نفسها ، لأن جميع الشعوب شهدت لمصر بسبقها لمعرفة خلود النفس والحياة الثانية ، فسهلت الطريق لمجىء المسيحية ، وقد جاء فى الأساطير أنه لما ولد « أوزوريس» سمع المصريون صوتاً يأتى من السماء يقول : « هذا هو الإله العظيم الآتى إلى العالم ».

ويقابل ذلك ما جاء فى الإنجيل عن ولادة السيد المسيح من أنه سُمع صوت من السماء يقول : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت» .

أما «ساتى » فكان الشيطان كما نعرفه في توراة العهد القديم، ولاشك أن اليهود أخذوا فكرة الدينونة من قدماء المصريين ثم اقتبستها عنهم بقية الأديان.

وفى معبد الأقصر تجد صورة الإله آتٍ يبشر « إيزيس » بميلاد طفلها الذى سيكون إلهاً « حورس » إن هذا منقوش على جرانيت المعبد وهو أشبه بالملاك الذى أتى ليبشر العذراء بميلاد السيد المسيح « عيسى بن مريم » .

وقبل أن يظهر « مينا» الملك المصرى الأول ،كانت « هيليوبوليس» « بيت الشمس» مدينة عظيمة مشهورة بالعلم والدين وعاصمة المملكة المصرية القديمة التى لا نعرف عنها شيئاً .

وقد ظهر الدين فى « هيليوبوليس» بمعناه الحقيقى وهو عبادة إله واحد رب السموات والأرض خالد لا يموت . . ومن هيليوبوليس انتشر الدين فى جميع ممالك مصر فأصبح « لمنف » إله و لـ « طيبة » إله ،بل لكل قرية ومدينة إله ،ولكن مرجع جميع هذه الآلهة هو الإله الواحد الذى علمته هيليوبوليس لمصر وهو الإله القادر على كل شيء وجعلوا الشمس رمزاً له لأنها أصل كل حياة ،أما اسمه فكان « آتون» .

إن المصريين لم يعبدوا الحيوانات لأنها حيوانات بل كانوا يعتقدون أن أرواح الآلهة تتقمص أو تحل فى بعض الحيوانات، ومن هنا نشأت عبادة هذه الحيوانات كالعجل « أبيس » والبقرة « هاتور» .

كما عرفوا « آدم » وجعلوه اسماً للإله الأكبر ثم حرفوه إلى « آتوم » .

لقد عبدوا إلهاً واحداً ثم تطرقوا مع الزمن إلى عبادة صفات الإله الواحد فجعلوا لكل صفة منها إلهاً مستقلاً عن الآخر ،فلم تكن البقرة هاتور ،سوى رمز للعطف والحنان ،كما كان العجل أبيس رمزاً للقوة والنشاط .

وقد كان يرمز لكل إله برموز دائرية وترمز فى نهاية الأمر إلى الإله الواحد ،الذى كان مركزه فى منتصف الدائرة .

وقد كانت زهرة اللوتس مقدسة لأنها كانت مستديرة تشبه الدائرة ،وكان العقل عندهم دائرة أيضاً وهو مظهر الإله الأكبر،يتوسط الدائرة .

وكانت حبوب اللوتس تنمو داخل غلافها ثم تمزقه وتنمو فى الماء رافعة نفسها فوقه على شكل دائرة .

ومما يدعو للدهشة أن أميراً هندياً جاء قبل المسيح بخمسمائة سنة ،فأخذ فكرة الدائرة عن المصريين ،وكان هذا الأمير الشاب ولى العهد لمملكة أبيه ،وعلى جانب عظيم من الجاه والثروة والنفوذ ولكنه وهب جميع ما يملك وتنازل عن الملك وطاف الهند والتبت يبشر بهذا المبدأ الدينى ،إلى أن وصل به الطواف إلى بلاد الصين فاعتنقت الصين هذا المبدأ وجعلته دينها الرسمى المقدَّس ،أما الأمير الهندى فكان اسمه « جوتاما» لكن أتباعه دعوه « بوذا» أى الرجل العالم بكل شىء .

وعرف الدين الجديد بالديانة البوذية التى نادى بها الإله الهندى « جوتاما» الذى اقتبس حكمة مصر وجعل ديانته كدائرة يتوسطها الإله الأكبر .

وليس فى العالم بأجمعه شعب تغلغلت مراسيم الدين فى حياته العامة والخاصة كالشعب المصرى ،ففى البيت ،والمعبد ،وفى الأفراح،وفى الأحزان ،وفى الطب ، والعلم،والأدب،وفى الحفلات ،والمراسيم ،وفى الرسم ،والنقش ،وفى المقابر، والهياكل،وفى الأهرام وأبى الهول،تجده في كل صورة من صور حياتهم رمزاً للدين، مبدؤه الدين ومرجعه الدين ،ذلك لأن الدين طغى على كل شىء سواه .

وأصبح المصرى القديم يعيش للعالم الآتى ،لا لهذا العالم الفانى ،لأن المبدأ الأساسى فى حياة المصريين كان الروح لا الجسد ،لأن الروح خالدة واعتبروا أن الأموات تتحول إلى طيور بعد وفاتها وتعلو فى السماء إلى فوق طبقات الهواء حتى تصل إلى «رع » أى الشمس ،فتصبح هناك نجوم أزلية تعيش إلى الأبد .

وإنى أعتقد أن الخلود أو الأبدية عند قدماء المصريين كان معناه التجديد الدائم، وتكرار حلقة الزمن وسلسلة الوقت.

وقد كان الموت فى نظرهم طريقاً يعبر منه الإنسان ليجدد حياته الأخرى ،لذلك كانوا يدفنون الميت ومعه أمتعته وأثاث بيته وكل ما يملك فى حياته ،ولم يكن الموت سوى نوم طويل الأمد ،وإنى أجزم أن الكثير من الطقوس الدينية الموجودة عند النصارى مأخوذة من عبادات قدماء المصريين .

سادساً : لغة المصريين

كانت اللغة الهيروغليفية ،لغة العلم ،والأدب ،والدين عند قدماء المصريين.

وأقدم ما وصل منها إلينا نقوش الكهنة فى الأسرة الأولى وهى صور تكتب عمودية أو من اليمين إلى اليسار ،واللغة الهيروغليفية هى لغة الدين المقدسة .

واستمر استعمالها إلى القرن الرابع بعد الميلاد فاختفت الديانة الوثنية واختفت معها اللغة الهيروغليفية ،أما الخط الثانى فهو الخط الهيروطيقى ويكتب من اليمين إلى اليسار.

أما الخط الديموطيقى فهو خط الشعب فى أواخر التاريخ المصرى فى عهد الأسرة السادسة والعشرين ،أما الخط الأخير فهو الخط القبطى وأكثره مكتوب بالحروف اليونانية، ولم يستطع العلماء فك رموز اللغة المصرية القديمة ،حتى اكتشف حجر رشيد « روزيتا» عام ١٧٩٩م على يد الضابط الفرنسى « لاشاد» أحد ضباط الحملة الفرنسية أثناء اشتغاله بترميم قلعة رشيد فحملوه إلى فرنسا حيث حل رموزه العالم الفرنسى «شامبليون» مع زميله الدكتور «توماس بنج» الإنجليزى، فسهل على العلماء قراءة جميع الحروف المصرية المحفورة على الأعمدة والهياكل والمقابر .

سابعاً : العائلة عند المصريين القدماء

كان للعائلة مركز عظيم فى الحياة المصرية القديمة ،قد لا تجد رسماً منقوشاً فى معابد وهياكل مصر إلا وتجد للمرأة مكانها بقرب الرجل .

والمصرى كجميع شعوب العالم القديم ،كان يتخذ لنفسه الإماء والعبيد لكنه كان يحافظ على زوجة شرعية واحدة،وكانت الأم المصرية ترضع طفلها ثلاث سنوات متوالية، وكان الأولاد إناثاً وذكوراً لا يلبسون شيئاً على أجسامهم قبل البلوغ حتى إلى ما بعده وقد كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم ،ثم جرت العادة المتبعة بانتساب الأبناء إلى الآباء ،وقد جاء فى كتاب الحكمة على ورق البردى ما يأتى :

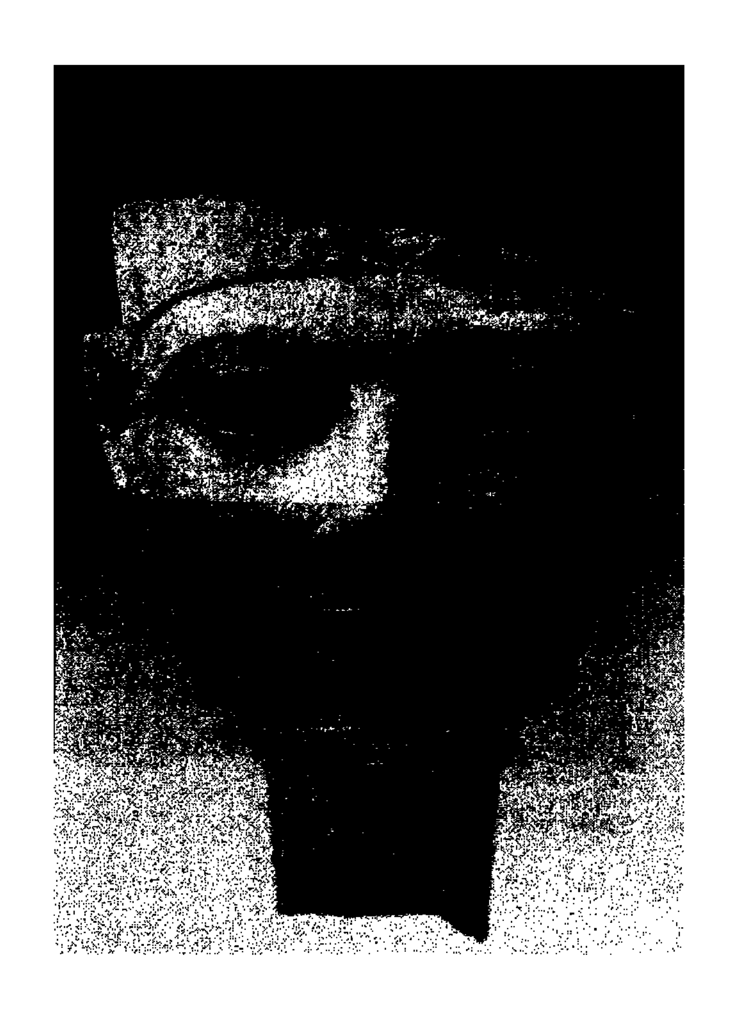
« ما أسعد الرجل الذى يبنى بيته ،ويحب زوجته »

« ما أسعد الرجل الذى يموت فى البلدة التى ولد فيها »

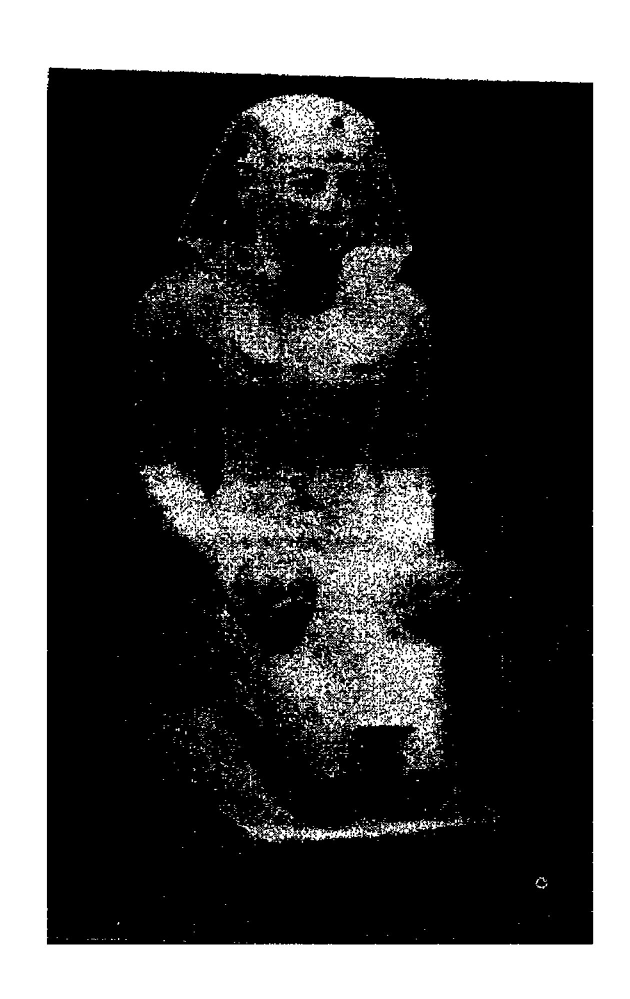
وكان المصرى قديماً ولوعاً بالطبيعة ،والمعيشة الخلوية فكانت منازل السراة تحيط بها الحدائق الحاوية لأشجار التين والنخيل والجميز والعنب مع برك ماء ملأى بالأسماك، وكانت بيوت المصريين واسعة ،جميلة ،أفضل كثيراً من بيوت الفلاح المصرى فى عصرنا هذا ،كما كانت الكراسى من النوع الجيد ،المريح للجلوس ،وفى كثير من الحالات كانت أشبه بما نستعمله فى هذه الأيام كما ترى فى الرسوم التى وجدت فى المدافن والمعابد .







الملكة حتشبسوت



تحتمس الثالث



معبد أبو سمبل

خـاتمـة

وهكذا صديقى القارىء أرى أنى قد ألمت بكثير من ماضينا العريق وطرحته عليك عبر صفـحات هذا الكتاب ،ولكن هذه ليست كل الأشيـاء عن قديم زماننا ولكن هناك أشياء أخرى جميلة أيضاً ، فعليك يا عـزيزى أن تبحث عن ماضيك وتعرفه وتحفظه عن ظهر قلب ولتعلم أن من ليس له مـاضٍ يذكره فى ذاكرته لا يجد له مستـقبلاً يذكره فى طيات سنينه .

فقـد صدق الشاعـر العظيم شاعـر النيل عندما نظم لنا قـصيدته العـظيمة « مـصر تتحدث عن نفسها» . .فهذا هو أقل ما يمـكن أن يقال عن مصر . . مصر صاحبة الريادة فى كل شىء منذ فجر التاريخ إلى أبد الآبدين .

عزيزى القارىء شكراً لك على حسن صحبـتك لهذا الكتاب على وعد باللقاء عن قرب فى كتاب آخر نحاول أن نسترجع عـبر صفحاته المزيد والمزيد من تاريخ مصر الذى دائماً يفيض بكل جميل عن أرض الكنانة مصر .

المؤلف

الفهـــرس